صفحات مشرقة

من تاريخنا المجيد

تأليف

الدكتور محمد عبد اللطيف صالح الفرفور

دار ابن كثير — دار القادري

دار الكلم الطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ لله حمد الشّاكرين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

أمَّا بعد :

فإنَّ القصَّةَ ذاتُ شأنٍ سامٍ في تاريخ الأمة ، فهي تُمثِّلُ أخلاقَ الناس ، وتصوِّرُ عاداتهم ، وترسم خَلَجات نفوسهم ، وتدفع النَّاس إلى الأخذ بمكارم الأخلاق ، والـمُثُل العليا .

وقد رأيتُ لزاماً عليَّ أن أقرأ التَّـاريخ ، وأضع يدي على أنفس القصصِ المبثوثة في بطون الكتب ، وأُحيِيْها مِن جديد بـأسـلوبي وكلمـاتي ؛ لأجعـلَ منها تصـويراً لِمَثَـلٍ أعلى ، وتوضيحاً لصفةٍ حميدةٍ . والقصدُ من ذلك تهذيب الطباع ، وترقيق النُّفوس ، وعَرْض تاريخ أُمَّتنا المجيد بأحرف من نور .

هذا ، وإنِّي لا أملكُ إلَّا القـلم أكتبُ به ، وهل يملكُ المفكِّرُ الأديبُ إلَّا يراعه ؟ ! .

فلأجعـلْ مِن قلمي هذا قصَّـةً تبحث في تاريخ الأمة ،

ومصبــاح هدايةٍ بيد الصَّــالحين ، وسراجاً للمستنيرين في مُدْلهمَّات الخطوب ؛ لعلَّ اللّهَ يغفر لي ، ويفيد بي .

اللهـم اقبـلْ أعمـالي ، واكتبْ مثل ثوابها في صحائف والديَّ ، واغفر لي ، وتُبْ عليَّ إنك أنت التوابُ الرحيم .

والحمدُ لله ربِّ العالمين .

المؤلف

الدكتور عبد اللطيف الفرفور

١

السِّفْر الأول
حِكَايَاتٌ مِن دِمَشْقَ
وبلادِ الشام

* بَنَاتُ الشيخ
* دَرْس للسلطان
* الشيخ والتاجر الإسكندراني
* مِن مَوَاقفِ المحدِّث الأكبر
* مِلَاك الدِّين : الوَرَعُ
* أإله مع الله ؟ !
* عالِمٌ من دمشق

بَنَاتُ الشيخ

حَدَّثَ بعضُ مَشْيَخَةِ دمشقَ مِن الـمُعَمَّرين قال :

كان في دمشق صَدْراً من صُدور العلماء ، وعَلَماً من أعلامهم ، يُجلّه أهلُ عصره ومصره ، وتُوَقِّره الخاصةُ فضلاً عن العامة ، مسموعَ الكلِمةِ ، نافذَ الرأيِ ، وكان إلى ذلك كلّه وَرِعاً ، وَقَّافاً عند حدود الله عز وجل ، أَمَّاراً بالمعروف نَهَّاءً عن المنكر ، لا تأخذه في الله لَوْمَةُ لائم ، سَلَفياً ، معتدلاً في سَلفيته ، أشبه بسلفية الفقهاء والعلماء ، لا سلفية الحَشْوِ والجهــال ، مع مزايـا أُخرى من سَـــلامـة الذوق ، ومعرفةٍ بالإيقاع وأُصوله ، على حِشْمةٍ ، وأدب جَمٍّ ، وتواضعٍ عُرِف به ، حتى كان قمراً من أقمار الهداية ، بَلْ شمساً من شموس العلم ، اعترف بذلك العدوُّ قبل الصَّديق ، وعَرَف ذلك منه القاصي والداني ، وباتَ مَرْجِعَ دمشقَ وبلادِ الشام .

وكان يخطب في جامع الدَّقَّاق بالميدان ، وله جُذورٌ تَمُتُّ إلى السادة المغاربة بسبب لا بل بأسباب ...

ذلكـم هو علاَّمة الشـام في عصره الشيخ عبد الرزاق البيطار ـ رحمه الله ـ .

كان للشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ مِنَ البنات ثلاثٌ ، هُنَّ في الذِّرْوة مِنَ الحَيَـاء ، والخَفَـر ، والدِّين ، والعَفَـافِ ، والصَّوْنِ ، وقد قَرَأْنَ على أبيهن العلاَّمةِ الجِهْبِذُ كثيراً من العلوم الإسـلامية ما أَهَّلهُنَّ لإمامة النسـاء في العِلْم والمعرفة ، إلى نُسُك ، وزهادةٍ ، وجَمـالٍ ، ومالٍ . حتى كادت تكتمـل فيهن صفات المرأة المؤمنة القانتة ... ، فكنَّ مَضْرِب المثَلِ في ذلك كلِّه ...

وكانَ الشيخُ ـ يرحمه الله تعالى ـ حريصاً كلَّ الحِرْص على أن يزوِّج بَنَاته مُبَكِّراً ، وقد سعى إلى ذلك كلَّ السعي ، وبذل قُصارَى جُهده لم يَأْلُه ، امتثالاً لأمر الشرع ، ورعايةً لحق المروءة ، وسَتْراً لهن من غدر الزمن ، وفسادِ أهله ...

ولكنَّ الله ـ عز وجل ـ شاءت حكمته أن يَنْسَأ زواج هاته البناتِ الثلاث ، فَلَم يُقَيِّضْ لهن أصهاراً صالحين يَرْضَى الله عنهم ورسولُه وصالحو المؤمنين .

وطال الأمر ، ونَفِد صـبرُ الشيخ ، فَعَزَمَ على أن يتخذ

لذلك الأمر العصيب حَلاًّ جذرياً مِنْ صُلْب الشريعة الغراء ورُوحِها ، وهو بَعْدُ سُنَّةٌ هجرها المسلمون المعاصرون من حيث قام عليها أكابر السلف الصالح ، وهل هناك من يُوزَن بعمر بن الخطاب أميرِ المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ ؟ فلقد عَرَضَ بنته حفصة ـ رضي الله عنهما ـ على أبي بكر وعثمان ـ رضي الله عنهما ـ .

وخطب الشيخُ خطبةَ الجمعة في جامع الدَّقاق من محلّة الميدان بدمشق ، ولَمَّا انتهى من خطبته المعهودة ، وتلا الآيةَ التي أمر بها الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ ورضي عنها أن تختم بها الخُطَب المنبرية بَدَلاً عن سفساف القول ؛ وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] قال للناس قبل أن ينزل من المنبر :

أيها الناس ! اسمعوا مني ؛ فإنَّ عندي ثلاثَ بناتٍ ، وإن الله لا يَستحيي من الحق . وإني أرغب في تزويجهن على كتاب الله وسُنَّة رسوله ـ صلوات الله عليه ـ وإنَّ كبراهن اسمها

كذا ، وإن وسطاهن اسمها كذا ، وإن صُغراهنَّ اسمها كذا .

أما الأولى فَوَضيئةٌ ، حُسَّانةٌ ، بيضاء ، وشعرها أسود . وإنَّ وُسطاهنَّ وَسَطٌ نَصَفٌ ، وشعرها أشقر ، وإنَّ صُغراهنَّ دون أُختيها ، لكنَّها ذَكية ، لوذعيةٌ ، جَذَّابةٌ ، فاتنةٌ ، ذات غُنْجٍ ، وإني لا أبغي غير الدِّين والخُلُق ، وأُريد أصهاراً ثلاثةً معاً لبناتي الثلاث من ذلك الطِّراز الرفيع ، فَمَن كانت لديه الكفاءة والأهلية فلْيَتقدَّم إلى مصاهرتي ، وله عندي ما يحبُّ إنْ شاء الله تعالى ...

قال : ثم ينزل من على المنبر ليؤم الناس في الصلاة ...

* * *

ظَلَّ الشيخ على ذلكَ العَرْضِ المسنون المبارك طَوالَ ثلاث سنواتٍ ، لم يُرْزق فيهن بصِهْر ، وهو لا ينسى أن يقول مقولته تلك محتسباً عند الله تعالى أمره ، يقوم بالسبب الذي أمره به الشرع ، ويطلب إلى الله ـ عز وجل ـ تيسير ذلك بفضله ، ومَنِّه ، وكرمه ، إنه هو أرحم الراحمين .

وبعد ثلاث سنين ، وبينما الشيخ يقول قالته تلك على منبره قبل نزوله للصلاة ، قام ثلاثةُ رجال إخْوةٍ معاً ، فقالوا

للشيخ بصوت واحد :

يا شيخنا ... إنَّ هذا الذي تَطْلُبُه إلى ربك ، وتعرضه على إخوتك المسلمين لهو عندنا ، فَصَلٌ بنا حتى نحدِّثك بحديثنا الذي يسرك إن شاء الله تعالى .

والْتفتَ الشيخُ إليهم يملأ عينيه منهم مُتَوَسِّماً ، يَخْدُجُهم حِصَّةً من الزمن ، يَسْتخير اللهَ ـ جلَّ شأنه ـ بقلبه فيهم ، فلمَّا انْشَرح صَدْرُهُ إلى تزويجهم من بناته قال لهم ـ وهو يريد أن يستوثق لدينهم ، وأمانتهم ، وكفاءتهم ـ :

أهْلاً بكم أيها الفتيان ... ولكنْ ألَا تخبرونني من أنتم ، وما هي أسماؤكم ، وألقابكم ؟ ومَنْ آباؤكم ، وذَوُوكم ؟ .

فقال له واحدٌ منهم بلسان الجماعة وهم يسمعون :

يا شَيْخَنا نحن إخوةٌ أشقاءُ من آل فلان ، ووالدنا هو فلان ، ونحن نعمل في الدنيا ، ونطلب العلم على الأشياخ ، وسِنُّ الكبير منا كذا ، والأوسطِ كذا ، والأصغرِ كذا ...

فَلَمَّا وَقف الشيخُ على حقيقة أمرهم سُرَّ سروراً بالغاً ، وجلس إلى الأرض ، واستَوْقَف جُموع المصلين كيلا يخرجوا من الجامع ، وعَقَدَ عقود زواجهم بنفسه بالولاية والوكالة ،

وأشهد الجمعَ على ذلك ، وكان صداقَ كلٍّ واحد منهم عشرةُ دراهم من الفضة فقط أو ما يوازيها آنئذٍ بالعملة التركية ...

فلمَّا انتهى للشيخ ما يريد دعا وجوه القوم والفتيان الثلاثة إلى داره القريبة من الجامع ، وأَوْلَم لهم مما حَضَر من كريم الرِّفادة ، وانصرف الناس مع غروب الشمس ، وبقي الأصهار في الدار ينتظرون أمر الشيخ . فصَلَّى بهم إماماً المغرب والعشاء الآخرة ، فلما انفتل من صلاته دعا لهم ، وبَرَّك عليهم ، وأخذ بأيديهم إلى غرف ثلاثة في جَناحٍ من أجنحة داره الكبيرة ، وقال لأصهاره :

إنكم لم تَرَوْا أزواجكم ، ولكم حقُّ الخيار ، فادخلوا فلينظر كلٌّ إلى زوجته في غرفة خاصة دون إغلاق الباب كيلا تكون خلوةٌ شرعية تُوجِب كلَّ المهر ، ثم أنتم بَعْدُ بالخيار ...

فدخلوا ، فنظر كلٌّ منهم إلى زوجه الفتاة البِكر الحسناء ، فأَعْجَبنَهُمْ ، وأعلنوا ذلك للشيخ ، فأمرهم بالبِناءِ بأزواجهم الليلةَ في هذه الغرف ، كلٌّ يبني بزوجه في غرفته تلك ، ودلَّهم على المرافق الخاصة بذلك الجَناح ، ودَعَا لهم ، وخرج ...

* * *

رَقَدَ الشيخُ بعد يوم عَانَى فيه من تعبِ الجسم ، ولكنَّه كان تَمْلَؤُه البهجة والحُبور ، مما وصل إليه من الخير الكثير ، فهذه بناتُه الأبكار تزوَّجْنَ الأصهار الصَّالحين ، وكنَّ زوجاتٍ لإخوة أشقـاء ثلاثة من خير الشُّبَّـان ؛ الذين جَمَع اللهُ لهم خيْـري الدنيـا والآخرة من طَلَبَـةِ العـلم النجبـاء ، والتجـار الأبرار ، فـاللهـم لك الحمد لمـا أَوْليتَ ، ولك الشكر لِمَـا أَعطيتَ ، سبحانك أنت البادىء بالإنعام ، والمتفضل بعوائد الإحسان ...

داعَبَ الكرى جَفْنَي الشيخ الوقور وهو في فراشه يَذْكُر اللهَ ، فيحمده حمد الشاكرين من عباده ، ورَجَعَ في ذكرياته إلى سنّ الشباب يوم تزوَّجَ تلك المرأةَ الصالحة ، فأولدها هذه الذريةَ المباركة ، ودارتْ في رأسه مَشَاهِدُ البنات يوم مجيئهن إلى الدنيـــا ، وفَـرَحـــه بهن من حيث غصَّ بذلك الأهـلُ والأقارب والأحماء ، وكان الراضي بذلك من القوم الزوجة التي ولدتهنّ ، وقلبُه الطَّهور الذي كان لسان حاله يقول : (أحبّ الله أمراً فأحببناه) .

وتَذَكَّر الشيخُ طُفـولَتهنَّ البريئـة ، وحَـلاوةَ تربيتهنَّ ، وعطفهنَّ عليه أكثر من أبنائه الذكور ، وإنْ كانوا كلُّهم في

البرّ والرضا سواءً ، غير أن البنت تفكِّر بقلبها من حيث يفكِّر الصَبيُّ بنفسه ؛ لذلك قال النبي ﷺ :

« من رُزِق ثلاث بنات فأحبهنَّ ، وربّاهن ، وأعطاهنَّ أكثر مما أعطى إخوتهنَّ ، دخل الجنة من أي باب شاء » ، وفي رواية : « أدخلنه الجنة » ...

تَذكَّر الشيخ ذلك كله وهو راقد في فراشه ، حتى أخذ بجفونه النوم ، فلما استيقظ باكراً قام إلى الوضوء والصلاة ، فصَلَّى بأصهاره الثلاثة إماماً ، ثم دعا لهم ، وقال :

الضِّيافة ثلاثة أيام ، وبعدها أنتم بالخيار : من شاء أن يذهب ذهب ، ومن شاء أن يقيم أقام ...

وفي اليوم الثالث وَدَّع الأصهارُ الثلاثةُ شيخَهم ، وذهبَ كلٌّ إلى داره ، ولكن بقي لهم في قلب الشيخ مكان لا يناله أحدٌ غيرهم ، وفي دار الشيخ لهم كذلك بيوتاتٌ وجَناح .

وصدق الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] صدق الله العظيم .

* * *

درس للسلطان

حَدَّث بعضُ من أَدْرَك دمشق أواخرَ زمنِ سلطنة آل عثمان قال :

كان في دمشق زمنَ سلطنة السلطان عبد الحميد عالِمٌ من علماء الدِّين الإسلامي ، وخطيب من خطباء جامع بني أمية الكبير بدمشق ، ومن شيوخ عصره الذين يُشار إليهم بالبَنان ، عُرِف إلى فقهه وعلمه بالدَّماثة ، والشجاعة الأدبية ، والنكتة الظَّريفة . وَلِيَ القضاءَ ، وكان في ذلك مَضْرِبَ المثَلِ : نَزَاهةً ، وعِفَّةً ، وتَرفُّعاً .

وكان إلى ذلك كلِّه يُتْقن مداراة الولاة والحكام ، ويستحوذ بلطفه وأدبه على ثقتهم فيَنصح لهم ، ويُوجِّههم إلى الخير دون تَزَلُّفٍ ولا مَلَق ، فكانوا يحبونه ، ويهابونه ، ويستمعون لنصحه ، ويَفيدون من عِلْمه وأدبه .

ذلك هو الشيخ أبو النصر الخطيب ؛ خطيب الجامع الأموي ، والقاضي الأول بدمشق بل وفي بلاد الشام ... وعالِمُ دمشق ، ومُحَدِّثها ، وفقيهُها غير مُنَازَعٍ .

أدركَ الشيخُ العِلْيَةَ من الأشياخ وصَحِبَهم ، وجالَسَ الكُبَراءَ ، وكان نَديمَ الولاة والصّدور من رجال الدولة ؛ الذين عُرفوا بالصلاح والتقوى مثل جَوَاد باشا ـ الصدر الأعظم للدولة العثمانية ـ وأضرابه ، ولم يكن له إليهم حاجة فيقضوها ، بل هم كان لهم إليه حاجاتٌ في شؤون إدارة البلاد ، فكان الشيخ بِحنْكته وحكمته يدفع عن البلاد العربية بعامة وعن دمشق بخاصةٍ ضرراً بالغاً ، وخطراً محيقاً ، ربما عجز الكثيرون عن دفعه مع اشتغالهم بشؤون الدولة ، وذلك ببركة التوفيق الإلهي والنُّور الذي جعله الله تعالى في عقل الشيخ وقلبه وبين يديه ، يَمشي به في حَنَادِسِ الجَهْدِ ، وظُلُماتِ البَلَاءِ .

ظَلَّ الشيخ ـ قاضي دمشق وبلاد الشام الأكبر ـ يَرْعَى شؤون القضاة من الشيوخ من أصحابه وإخوانه رعايةَ الوالد الشَّفوق ، ويُكَلِّم فيهم الولاة والوزراء ، حتى حَدَثَ ما لم يكن في الحِسَاب ، لا حساب الشيخ ، ولا حساب القضاة من أصحاب الشيخ .

فلقد أشار بعضُ ذوي الاتّجاه القومي التركي (الطُّوراني) من رجال الدولة على السلطان أن يَشترط لِرُتْبَةِ

القضاء مَنْ يُتقن اللغةَ التركية كتابةً وأدباً ، وإلّا عُزِلَ ، ولم يكن الشيخ أبو النصر ولا إخوانه القضاة بدمشق وبلاد الشام يُحسنون من التركية إلا شيئاً من التركية العامية الدَّارجة لفظاً دون الكتابة إلَّا مَن ندر ، وهم يُعدون على أصابع اليد ، بينما عُزل الباقي عن القضاء لجهلهم بأدب اللغة التركية ، لغة الدولة الرسمية .

ماذا يفعل الشيخُ أبو النصر ؟ ! وقد صَدَرت بذلك إرادةٌ سنيةٌ سلطانيةٌ من الباب العالي بإستانبول ، وأصبحتْ قانوناً سارياً نافذاً لا مُعَقِّبَ له ؟ .

فكَّر شيخنا ملياً ... وهو جالس في صحن داره أمام البِرْكة الرخامية الجميلة ذات السَّبْعَيْن ؛ اللذين ينطلق من فم كلٍ منهما نافورةٌ من الماء المتلألىء ، ويده على لحيته تجول بينها وبين ناصيته ... وهزَّ برأسه ، وعزم على أمرٍ ، ثم قام لا يُلْوي .

* * *

جَمَع الشيخُ القضاةَ المعزولين ، وأمرهم بالاستعداد للسفر إلى قاعدة السلطنة إستانبول ، وأمر كلاًّ منهم أن يكوِّر

عمامته تكويراً جيداً ، ويكبِّرها مع إتقانِ صنعها ! وأن يَلْبَس أحسن جُبَبِه ، وأن يأخذَ معه من عند بائعي الحلوى المعروفة آنئذٍ بـ (القيمق لي) واحدةً من الآلات التي تُصْنَع بها تلك الحلوى تُعرف في دمشق بـ (الطُّرْنبة) ، ولـمَّا سألوه عن سرِّ ذلك أجابهم بأن عليهم السمع والطاعة فقط دون سؤالٍ أو تَرَدُّد .

وذهب الشيخُ مسافراً بالقطار الحديدي مع القضاة ، وهو على رأسهم ، حتى وصلوا إستانبول ، ونزلوا في نُزُلٍ قريب من قصر يَلْدِز ، وذهب الشيخ يسأل عن مكان القصر ونوافذه ومكان نوم السلطان عبد الحميد ... حتى فهم ذلك كلّه في أقلّ مِنْ يوم .

وأزفت ساعةُ العملِ ، فَأَوْعَزَ الشيخُ للقضاة أن يَلْبَسوا عمائمهم الكبيرة الـمُشْرَعة وجُبَبَهم البيض ذوات الأكمام العريضة ، وأن يُسرِّحوا لحاهم البِيض المستديرة ، وأن يحمل كلٌّ منهم الطرنبة على كتفه وفيها (القيمق لي) وذهب بهم رَتْلاً في شِبْه حركة عسكريةٍ ، وكأنه قائد كتيبة وطرنبتُه في كتفه وهو أميرهم ، حتى وصلوا إلى نوافذ القصر حيث ينام السلطان في ساعةٍ عرف الشيخ أن السلطان يدخل فيها

حجـرة النـوم ، ونادَى بأعلى صـوته أمام المـارَّة ، والقضـاةُ المعمَّمون يردّدون معه بصوت واحد بلهجة تركية ركيكةٍ :

قيـمق عرب كوزال ، قيمق عرب شـوف كوزال ... قيمق عرب لَزْ ... قيمق لي ...

ومَدُّ القضاة (لي ...) في آخر الجملة التي لا تَعْني أكثر من أنهم امتهنوا هذه الحرفة ، فهـم يُنـادُون على بضـاعتهـم بالتركية يمدحونها ليرغِّبوا الناس بها ...

وظـلَّ الشـيخُ يصنعُ ذلك عدة أيام ، في كل يوم بضع ساعات ، والناس يتعجبون من هذه المهزلة ، ويضحكون ثم يذهبون ...

تأرَّق السلطانُ من هؤلاء الباعة وهذه الجَلَبة ، فسأل عن الأمر ، واستوضح عن هؤلاء الباعة المزعجين ، فظنَّهم باديء الرأي مِنَ السُّوقةِ فأمر بطردهم عن قصره وإبعادهم ، ولكنَّه ذُهل لـمَّا قالوا له :

يـا صـاحب الجـلالة ؛ إنَّ هؤلاء شيوخ معمَّمون بل وقضاة ، فكيف نطردهم ؟ !

أرسـل السلطانُ بعض خاصته ليأتي بهم ، ويسألهم عن

شأنهم ، فَتَقَدَّم الشيخ أبو النصر قائلاً بالعربية ـ والسلطان يسمع ـ :

يا سلطان المسلمين ! لقد أمرتَ بعزلنا نحن القضاة قضاة الشرع ، لأننا لا نتقن أدب التركية ، ومتى كان هذا الشرط من شروط تولي القضاء في الشريعة الإسلامية ؟ ! وبما أننا لا نُتقن ذلك وقد عَزلتَنـا ، فلقد امتهنّـا هذه المهنة ومعنا قيمق طازج ممتاز ، فهل تَذوقونه ضيافةً أوَّلاً ، فإذا ارْتضيتموه كان بعد ذلك بيننا وبين جَلالتكم حول القيمق هذا بازار .

كان قضاةُ الشرع الشيوخ هؤلاء زُهاء أربعمئة عمامة كما تَحَدَّثت الروايةُ ، وكلُّهم يحملون هذه الطرنبات في أكتافهم مملوءة بالقيمق ، قد وضعوا عليه ثلجاً كيلا يَفْسُدَ ، وحَدَّقَ بهم السلطان عبد الحميد ، وكان فيما يَرْوون لديه تأدّب مع الشرع وأهلِه ، وتوقير لعلماء الدين ، فدَمعت عينا السلطان حتى ظهر التأثر على وجهه ، وأمر مَنْ حوله بأخذ الطرنبات من الأشياخ وبتكريمهم ، حيث دعاهم مع الشيخ أبي النصر على ضيافته في يلدز ذلك اليوم ، وأحسن وفادتهم ، وكتب في الساعة ذاتها بإصدار إرادة سنية جديدة مفادها إسقاط هذا

الشرط من تعيين القضاة وعزلهم في أنحاء الدَّولة ، وقال للشيخ أبي النصر :

اليوم لن تخرجوا من القصر إلا والإرادة السنية بأيديكم وقد عُدْتم إلى عملكم في القضاء ، ولكنْ أرجو من القضاة الأجلاء شيئاً واحداً وأنت على رأسهم في ذلك .

فقال الشيخ أبو النصر : وما هو يا مولانا السلطان ؟ ! .

قال : أن يُسامحني هؤلاء الأفاضل ، ويَدْعُوا لي في ظهر الغيب ، فإني قد أسأتُ إليهم دون أن أقصد إلى ذلك ، وقل لهم يا شيخ أبا النصر : السلطان ابنكم ، وقد أخطأ معكم ، فمنكم المسامحة .

قالوا : وكانت دَرْساً بليغاً للسلطان .

* * *

الشيخ والتاجر الإسكندراني

حَدَّثَ من أَثِقُ به قال :

قَدِمَ بيروتَ من بلاد المغْرِب الأَوْسَط أواخِرَ القرن الثالثَ عشر للهجرة وأوائل القرن الرابعَ عشر شيخٌ من كبار علماء زمانه ، عُرِف بالحسب ، والنسب ، والعلم ، والفضل ، مُتَفَنِّنٌ ، مُشَارِكٌ ، وله باعٌ في علوم الإسناد ، والرجال ، والتراجم ، ذو قامةٍ مَديدةٍ ، وعمامة كبيرة ، ولحيةٍ ذاتِ شَيْبَة مباركةٍ ، ذلكم هو العلاّمة الشيخ محمد العربي العَزُّوزيُّ ، أمينُ الفتوى بالجمهورية اللبنانية آنذاك ـ رحمه الله تعالى ـ .

كان الشيخ ـ رحمه الله ـ ربانياً من شيوخ السلف الصالح ، ذا توكل عجيب ، واستقامةٍ نادرة ، وثقةٍ بالله عز وجل لا تَتَزَعْزَعُ . عَرَفَه بذلك كلُّ مَنْ خالَطَهُ ، أو جَالَسَهُ . وكان من أَمْرِه أنِ استأجر في بيروت داراً له ولأهله من رجل من نصارى بيروت إلى أَجَلٍ ، ضَرَبه له الشيخ ، لا يَحيد عنه .

ظلَّ الشيخ في داره تلك ، وكانت قريبةً من محلّ عمله ،

وكان بها سعيداً ، حتى قَرُبَ الأجلُ الذي حَدَّده الشيخ ، وجاء صاحبُ الدار إلى شيخنا يطلب إليه داره في الموعد المضروب ، حَسْبَما جاء في العَقْد .

استمهل الشيخُ الرَّجُلَ ريثما يجد داراً يَستأجرها تتسع لِثِقَلِهِ ، فلم يَرْضَ صاحب الدار إمهال الشيخ دقيقةً واحدةً بعد الموعد المحدَّد ، فهو في حاجة لداره ، وإذا لم يَفِ الشيخ بوعده جاء إليه بالشُّرِطة يلقون ثِقْلَه خارج الدار في الطريق ، ويفرغونها بقوة القانون .

بَقِيَ من الموعد المحدَّدِ أيام ، والشيخ يبحثُ عن دار فلم يَجِدْ طِلْبَتَه ، وضاق الوقتُ حتى انحصر في أربعٍ وعشرين ساعةً ، وصاحب الدار يزورُ الشيخَ كُلَّ يومٍ صباحَ مساءَ لا يَكِلُّ ، يطلبُ إليه تفريغَ الدار في مَوْعِدِهِ المحدَّد ، ولـمَّا لم يَصِلِ الشيخ من جهة العِباد إلى شيء لَجَأَ إلى الله وَحْدَهُ .

كان الشيخُ يحفظ من الأدعية ، والأذكار ، وأسماءِ الله الحُسْنَى الشيءَ الكثيرَ ، فرجعَ إلى ذلك ، وأغلق باب حجرته الخاصة عليه ، وجلس على سجادة الصلاة بالطهارة الكاملة يُصَلِّي ويدعو ، ودموعه تنحدرُ على لحيته وصدره غِزاراً

ساخناتٍ ، وهو يقولُ بكلِّ جارحة فيه ، بل بكل ذرة من ذرات جسمه ، وقطرةٍ من قطرات دمه : يا ربِّ ! .

أَجَلْ : ليس لها من دون الله كاشفةٌ .

وأَذَّن المؤذِّنُ لصلاة العصر من يوم الخميس ، وموعد صاحب الدار مع الشيخ لتفريغها أذان المغرب ، فصَلَّى الشيخ ، وأطال السجود ، ونادَى :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : ٦٢]

ثم انطلق يجأرُ إلى الله بصوته الأجش المختنق من العبرات :

(يا حيُّ يا قيوم ! برحمتك أستغيث .)

وأدركتِ الشيخَ سِنَةٌ من النوم وهو ساجدٌ ، فرأى جَدَّه النبيَّ صلوات الله عليه يمرُّ عليه بطلعته المهيبة مسرعاً ، وهو يقول له : (جاء الفَرَجُ فأَبْشر) .

بَقي لأذان المغرب دقائق ، والشيخ منعزلٌ في حجرته ينتظر الفَرَجَ ، وصاحب الدار قد أَعَدَّ عُدَّته لرمي ثقل الشيخ

في الطريق ، وهو ينتظر حُلُولَ الوقتِ حين يُؤذِّن المغرب وهو قريب ، وكلُّ شيء يبدو أنه رُتِّب ، ولكنْ ليس في مصالح الشيخ بل في مصالح غريمه .

(وعند اشتداد الغسق يبزغ الفجر .)

ومع أولِ كلمةٍ من الأذان (الله أكبر) صاح بها مؤذِّن الحي ؛ قُرِع الباب ... وسأل أهلُ الشيخ ؛ مُسْرعين :

مَنِ الطَّارِق ؟ ...

فجاء الجواب :

أهذه دار الشيخ العَزُّوزي ؟ !

قالوا : نعم ، فمن أنت ؟

قال : أُريد الشيخ .

قالوا : لا سبيلَ إليه ، فهو قابعٌ في حجرته لا يَريم ، ولا يبغي عنها حِوَلاً .

قال : لا بُدَّ من سبيلٍ إليه ، فلديَّ أمر خطير يحتاج إلى مقابلته .

فاستأذنوا الشيخ ، فرفضَ أن يستقبله فهو مشغولٌ عنه بما هو أكبر .

قال الرجل : فقولوا للشيخ أنَّ الذي أرسلني الله إليك بالفرج الذي بَشَّرك به سيِّدي رسول الله صلواته الله عليه .

أَذِنَ الشيخُ للرجل بالدخول ، فولجَ الدار حتى وَصَل إلى حجرة الشيخ ، فسلَّم عليه ، وقال له : أنا تاجر من الإسكندرية ، وقد أرسلني اللهُ إليك ، ولا وقتَ للحديث ، فقم معي حتى أشتريَ لك أيةَ دارٍ تُعجبك ، فأملِّكُك إياها مع فَرْشِها ومؤنةِ سَنَةٍ .

لم يُصَدِّق الشيخ بادىء الرأي قالةَ الرجل ، وظنَّه مازحاً ، ولكنه أكَّد له بالأيمان صِدْقَ ما يقول .

استأذن الشيخُ من صاحب الدار ساعةً من الزمن بين العشاءين ، وذهب مع التاجر الإسكندراني في عربةٍ كان قد وضَعها الرجل لهذا الغرض ، وظَلُّوا يبحون عن دارٍ قَوْرَاء تسرُّ الشيْخَ ، وتتسع لكتبه ، وحوائجه ، وأهله ، حتى وجدوا ضالَّتهم ، فاشتراها التاجر بما معه من الذهب ، وذهب قليلاً وجاء لها بِفَرْشٍ جديد ، ومؤنة سَنَة .

كلُّ ذلك تَمَّ في ساعةٍ ما بين العشاءين . فلما أَذَّن العشاء كانت الدار وما فيها مِلْكاً للشيخ ، معه مفتاحها ، وبيده حُجَّتُها ... وذهبا لينقلا ثقل الشيخ للدار الجديدة ، وسَلَّم الشيخ مفتاح الدار القديمة لصاحبها قائلاً له بصوتٍ متهدِّج تخنقه عبراتٍ ودموع ... الله فرَّجها يا ... خواجه ... هذه دارُك وهذا مفتاحها ، فَتَسلَّم ... ربُّنا أكرم وأرحم ...

بكى الشيخُ وهو يدخلُ الدارَ الجديدة بكاءَ الفرح ، وأَقْسَمَ على التاجر أن يقصَّ عليه القصةَ من أولها ، فلا يتم سروره حتى يعلمَ سرَّ هذا الذي جَرَى أمام ناظريه مِمَّا لا قِبَل له به .

قال الراوي :

وانطلقَ التاجر الإسكندراني يروي للشيخ القصةَ من أولها فقال له :

أنا لا أعرفك يا سيِّدي الشيخ ! ولا أعرف عنك شيئاً ، فأنا تاجر من تجار الإسكندرية وأنت مَغْرِبيٌّ ، نزلت بيروت من أراضي لبنان ، لم أسمعْ بك من قبلُ ، ولكني شديدُ التعلق بالله وبرسوله صلوات الله عليه ، وشديدُ الحبِّ والوَلَه لأهل

الله ، وأوليــائـه ، وعبـاده الصــالحين ، وكنتُ منذ أيام وأنا بالإسكندرية أصابني وجعٌ في خاصرتي اشتكى منه جسمي كلُّه ، فقرأتُ حِزْبِي من الليـل ، ونمت ، فرأيت النبيَّ ﷺ ثـلاث مرات ، في ليـلة واحدة على الصفـة التي ذكرها لنـا أصحابُه في كتب السيرة والشمائل ، أستيقظ بين الرؤيا والرؤيا لأعقل ما رأيتَ .

رأيتُ فيما يرى النـائمُ ـ وأنا على طهارة كاملة ـ سيِّدنا رسـول الله محمداً ﷺ قادماً إليَّ مسـرعاً على فرس ، وبيده خيزرانة خضراء ، وعليه جبة بيضـاء ، وعمامة بيضاء كذلك من عمائم أهل المدينة مطرَّزةٍ ولها عَذَبة لطيفة ، ووجهه أزهر كالبدر ليـلة التّمّ ، ولحيتُـه سوداء فيها شعرات بِيضٌ ، وهو يقولُ لي بصوت مرتفع كالعاتب عليَّ ؛ وقد شكوتُ له ما بي من ضُرٍّ ...

أنتَ هنــا تـأكل الطيبـات ، وولدنا العربي العزوزي في بيروت كاد يسأل الناس ؟ ! قم فأنقذه ، قُمْ فاشترِ له داراً ، وافرشها ، واجعل فيها مؤنة سنة ، وملِّكْ ذلك كلَّه له ؛ لعلَّ الله يجعل ما تحتسبه من الأجر سبباً في شفائك .. هيَّا قم ...

قال التاجر : فقمتُ صباحاً فحجزتُ على أول رحلة إلى بيروت ، فقدمتُها ، ولا أعرف فيها أحداً ، فنزلتُ الفندقَ ، وطَفقتُ أبحث عنك منذ ثلاثة أيام ، ولا تُؤاخذْني إذا قلتُ لك ؛ إنك لا يكاد يوجد في بيروت كلِّها من يعرفك .

فضحك الشيخ وقال : الحمد لله ... إنَّ من نِعَمِ الله على العبد يوم القيامة أن يقول له : يا عبدي أَلَمْ أُخْفِ لك ذِكْرك ؟ ! ثم إنَّ هؤلاء أهلُ كتاب لا يعرفون علماء المسلمين ، كما أننا لا نعرف علماءهم ، فكيف وصلتَ إليَّ بعد ذلك كلِّه ؟ ! .

قال : ما زلت كلَّ النهارِ أدور بِعَربة استأجرتُها لهذا الغرض أَسْرِط المدينة طُولاً وعرضاً أسأل عنك كلَّ من أَتَوَسَّم فيه أنه يَعرفك ، وأَرجع عند المساء بِخُفَّيْ حنين ... حتى ساقني القَدَر إلى كَوَّاءٍ للطرابيش في رأس الدَّرب الذي كنتَ تقطن فيه ، فسألته عنك ، فقال لي : إنك كنتَ تكوي طربوشك عنده ، وأنت من أصحابه ، فدَلَّني عليك في اللحظة التي وصلتُ بها إليك .. وها أنا الآن ولله الحمد أتماثل للشفاء ، فادعُ الله لي .

فصـمت الشـيخ وهو يُحَـدِّق في السَّمـاء يُتَمْتِـمُ بهذه الكلمات :

اللهـم فـاطر السـموات والأرض لك الحمـد على مـا أنعمتَ .

*　　*　　*

من مواقف المحدّث الأكبر

أتى على دمشقَ حينٌ من الدهر ، الناسُ فيه نيام كغَنَم في أَجَمةِ سِباعٍ بليلةٍ مظلمةٍ شاتيةٍ ، أحاطَ بهم الخَطَرُ من كل جانب ، وأحْدَقَ بهم الضُرُّ ، وتَكَالَبَتْ عليهم الأعداءُ كَتَكَالُب الآكلةِ إلى قَصْعَتِها . زَادَ على ذلك جهلُهم بدينهم ، وتقصيرُ كثيرٍ من علمائهم بحقِّ إرشادهم وتعليمِهم ، ويأسُ الآخرين من العلماء ، وجهلُ الكثيرين من شيوخ المتصوِّفة بِشرائع الإسلام وعلومه ، فضاع الناسُ بين عالِم فاجر وصوفيٍّ جاهل ، حتى نَبَغ المجدِّدُ العلّامة الشيخ محمد بدر الدين الحَسَني ـ رحمه الله تعالى ـ فظهر في سماء دمشق كقمر طَلَع على الناس بليل .

لم يكن الشيخ من العلماء المتماوتين الذين يُفسدون على الناس أمر دينهم بالتشدد المقيت ، أو بالانحلال والتساهل المعيب ، ولا من الشيوخ الحَشْويين الذين عَلِموا أمراً وغابت عنهم أمور . فهم يتكلمون في القشور يُعطونها الأَوْلويةَ والصَّدارة ، وحين يجدُّ الجِدُّ ، ويكون الكلام في اللُّب

والجوهر ، ويوم تَحين ساعةُ العمل الحقِّ الهادف لا يكون لهم أيُّ عمل ، فلا تُحِسُّ ولا تَسمع لهم رِكْزاً .

*   *   *

كان الشيخ ـ رحمه الله ـ نَسيجَ وَحْدِه ، لا يكاد يشاركه أحد في خصاله ، فهو على ما اشتمل عليه من العلم الغزير ، والفهم المستنير ، والتّفنن الذي تَفَرَّد به من دون علماء عصره ، أطَر نفسَه على نَمَطٍ من الحياة عاش له عُمُرَه ، لا يقدر عليه ذَوُو الأيْدِ من الرجال الأشِدَّاءِ .

أقام من نفسه وازعاً إلى الخير ، وداعياً إلى السُّنَّة والعمل بها وإحيائها ، وجَعَل مِنْ ذاته ، وحياته ، ووقته ، وجَهْدِه قَبَساً يُنير للناس في ظُلُمات ليلهم الطويل . لقد أُحْرق جَذْوةَ ذاتِه سعياً على صراط الله ـ عز وجل ـ ففازَ بِحُسْنِ الذِّكْر في الدنيا والآخرة ، وكان عند الله وعباده من الفائزين ـ إنْ شاء الله ـ .

*   *   *

ويُذكَر مِنْ مواقفه ما يَرْويه أهل دمشق قالوا :

لـمَّا جاء جمال باشا السفَّاح دمشق حاكماً مُطلقاً

مستبداً ، من طرف جمعية الاتحاد والترقي لبلاد الشام ، تلك التي أَخضعت السلطنة العثمانية لسلطتها العسكرية المطلَقة ؛ زَارَه من علماء دمشق ورجالاتها من لم يتورَّع عن ممالأته من علماء السلاطين ، ولـمَّا سأل جمال باشا عـمّن لم يزره من علماء البلد ذكروا له اسم الشيخ المحدِّث الأكبر ، فعزم على زيارته في مَقَرِّه بدار الحديث ، حيث غرفة الشيخ للتدريس .

تَعَالَمَ الناس عزم الباشا على زيارة الشيخ ، ووصل الأمر إلى مسامع الشيخ ، وجاء لزيارة الشيخ مُنْتَدَبٌ من الباشا يحدِّد الزيارة .

وأَزِفَتْ ساعةُ الزيارة بعد عصر أحد الأيام في دار الحديث الأشرفية بدمشق ، وخرج الشيخ من حُجْرته الخاصة التي يستقبلُ بها الناس إلى حجرة مجاورة ، ريثما يدخل الباشا ، فيكون الشيخ هو الذي يدخل عليه ، لأن الشيخ ما كان يقوم للكبراء ، والوزراء ، والأعيان ! بل يجعلهم يقرمون له ، شأنه مع أبناء الدنيا ، ولكنه كان يقوم للعلماء ، والصلحاء ، وأهل الفضل .

دخل الباشا حجرة الشيخ فلم يجدْ فيها ما يجلس عليه

سوى حصيرٍ عتيق جلس فوقه ، فدخل الشيخ ، وقام الباشا ، فقبَّل يَدَه من حيث أعطاه الشيخ كُمَّ الجبة . وبعد الترحيب بالضيف في حدود الاعتدال سأل الباشا الشيخَ قائلاً له :

هل عند مولانا المحدِّث الأكبر مانعٌ من أن يكون خليفةَ المسلمين بدلاً من السلطان العثماني ؟ فأنتم أهل الحَسَب ، والنَسَب ، والشرف ، ولديكم من الخلافة النبوية عن سيدنا رسول الله صلوات الله عليه ومن العلم والفضل ما يُؤهلكم لذلك ، ونحن نريدُ أن نردَّ الخلافة للعرب ولقريش ، وأنت يا سيِّدي حَسَنِيٌّ ! فما يقول شيخنا ؟ ! .

وظنَّ الباشا أنه قد وَضَع للشيخ الطُّعْمَ وهو الدنيا يجرُّه من طريقها ، ولم يَدْرِ أن الشيخ كان في نفسه فوق الدنيا والخلافة ، وفوق الباشا ذاتِه .

فقال الشيخ بكل تَوَاضُعٍ وهو يَبْتَسِمُ ، ويقدِّم للباشا الضيافة المعهودة لكل من زاره ، وهو تمراتٌ من تمر المدينة المنوَّرة مع جَرْعة من ماء زمزم كان يخبؤه لهذا الغرض : ما تقول يا باشا ؟ ! وهل أنا أهلٌ للخلافة ؟ ! يا با أنا طالبُ علم ... طالب علم ... طالب علم ... طالب علم ...

وانصرف الباشا وهو في ذُهول ترنُّ في أذنه كلمة : طالب علم ... طالب علم ...

وظنَّ الباشا أن الشيخَ غلب عليه التواضعُ فقال ما قال ، وهكذا ظن تلاميذ الشيخ ... ولكن الشيخ قَصَد غير ذلك ؛ لقد قصد أن طالب العلم رتبةٌ عَلِيَّةٌ دونها رتبة الملوك ، كما قال الشاعر :

إنَّ المـلُوكَ لَيَحْـكُـمون على الورى
وعلى الملوك لَتَحْكُـم العُـلَمَاءُ

فأين الخلافة ومنصبها الرفيع من رتبة طالب العلم الذي ليس فوقه رتبة إلا النبوة والرسالة ؟ .

وذهب الباشا من سورية إلى غير رجعة ، ونسي كلَّ شيء لقيه فيها ، ولكنه لم يَنْسَ موقفَ الشيخ منه و كَلِمَتَه التي قالها للتاريخ : ... يابا ؛ أنا طالبُ عِلْمٍ ...

هذا موقف ...

* * *

وموقفٌ آخَرُ يُشْبِهه مع أحد جنرالات فرنسا من

المندوبين الساميين الذي زار الشيخ في زيارة تُشْبه زيارة جَمال باشـا السفَّاح ، ودخل الشيخ عليه الغرفة ، فقام الجنرال ، وقال له الشيخ : ... يا با ... لقد ادَّعيتم يوم جئتم بلادنا أنكم جئتم لتمدِّنونا ، وقد مَضَى على وجودكم عندنا في بلادنا أكثر من عشر سنين ، فها قد تَمَدَّنَّا ولله الحمد فارحلوا ، أو فأسكتوا نيران هذه المدافع والطائرات التي تقذف على دمشق الحُمَمَ بدلاً من المدنية ... !! أم هذه مدنيتكُم الخاصة بكم يا أبناء فرنسا ، ورجالها الشجعان ؟ !

قالوا : وكانت المدافع الفرنسية تصْلي دمشق وابلاً من نار آنذاك ، فأَوْعَزَ المندوب السامي الفرنسي باللاسلكي ـ وهو في غرفة الشيخ بدار الحديث ـ أن يكفّوا عن الضرب . فسكتتْ المدافع والطائرات كأَنْ لم يكن شيء ، ورجعتِ الأمورُ إلى طبيعتها ، وأَهْوَى الرَّجُلُ لِيقبِّل يد الشيخ ، فاعتذر الشيخُ إليه ، وأعطاه كُمَّ الجبة كما كان يفعل مع هؤلاء ... فأقْسِمُ أنْ لو صار الرجلُ رُمَّةً في قبره لن ينسى كلام الشيخ المحدِّث الأكبر إليه في حجرة دار الحديث بدمشق ...

* * *

أمَّا موقف الشيخ مع علماء عصره وأقرانِه فلقد كان من مواقف العلماء الرَبَّانيين ، وقد حَدَّثني من أثق به قال :

كان في دمشق عالِم كبير جليل مُتَفَنِّنٌ من أقران الشيخ بل هو أكبر منه سِنّاً ، يَغْبِط الشيخَ على ما آتاه اللهُ تبارك وتعالى ، ووهبه من الفتوح ، والتوفيق ، والتأييد ، فزَلَّتْ قَدَمُه يوماً ، فنظم قصيدة يهجو بها الشيخَ ، وأَرْسَلَها مع أحد تلاميذه إلى دار الحديث لِيُلْقِيَها على الملأ في رحابِ المسجد وقريباً من مقر الشيخ ، لعله بذلك ينال من الشيخ .

وكان في المسجد رجلٌ من تلاميذ الشيخ محبٌّ شِبْهُ عاميٍّ يُقال له : الشيخ طه الزَّبَداني ، لم يُوظِّفه أحد ، ولا كَلَّفه الشيخ بشيء ، بل وَقَف هو نفسَه على حِماية الشيخ وأصحابه ، وكان قوياً ، مفتولَ العَضَلات ، مُصَارِعاً ، أَيِّداً . فلمَّا سمع ما يقول المبعوث بالقصيدة هجم عليه فأوسعه ضرباً ولَكْماً ، وقامت ضَجَّةٌ وجَلَبَةٌ في المسجد استنكرها الشيخُ لـمَّا وصلتْ إلى مسامعه ، وأَطَلَّ من حُجرته إلى صحن المسجد وصرخ :

... يابا ... لا لا ... هذا مسجد ... لا يجوزُ هذا

الذي تصنعون .... لا يجوز ... وأرسل وراء القوم ، فلمَّا عَلِم جَلِيَّةَ الأمر عنَّف الشيخ طه الزبداني على فعلته تلك في المسجد ، ونادَى تلميذه وكاتم سِرِّه : يا شيخ يحيى ...

فقال له الشيخ يحيى : لبيك ...

قال الشيخ : اذهب إلى (أبو حرب) وكان صانعاً للحلوى بباب البريد بدمشق ، ولم يكن غيره ، اذهب إليه ... اذهبْ فاشْتَرِ صندوقين من الحلوى ؛ صندوقاً كبيراً ، وصندوقاً أصغر منه ، وهيِّيء لنا عربةً .

وفعل الشيخ يحيى ما أمره به الشيخ ، وأخذ الشيخ معه المبعوثَ بالقصيدة في العربة ، حتى وصلوا إلى دار العالِم الذي نظم القصيدة التي هجا بها الشيخَ ، وأرسل من يلقيها في دار الحديث .

وفتح العالِمُ البابَ فوجد الشيخ البدرَ ، فَذُهِل ، ثم لـمَّا رجع إلى رُشْدِه رحَّب بالشيخ وبمن معه ، فدخلوا ، وجلس الشيخُ على البحرة ، والتفتَ للعالم صاحب الدار قائلاً :

... يابا ؛ أنتم أحسنتم إلينا إحساناً كبيراً بأن أخذتم من كثير سيئاتنا ، وأعطيتمونا من حسناتكم بتلك القصيدة التي

أرسلتموها ، جزاكم الله عنا كل خير كِفَاء ما قدَّمتموه من إحسان ، هذا صندوقٌ كبير لكم ، وهذا صغير لتلميذكم الذي أتحفنا بالقصيدة في دار الحديث ، جزاه الله خيراً كذلك .

احمرَّ وجهُ العالِم وتلميذه ، وأطرق كلٌّ منهما ، وقام الشيخ منصرفاً لا يُلوي .

ذَكَر لي مَن روى الحادثة ـ وهو شاهدُ عِيان ، عاصَر أحداثَها ، وعاش وقائعها ـ : أن العالِم الوقور صاحب القصيدة نَظَم قصيدةً من الوزن نفسه والقافية والرَّويِّ ذاتهما في مدح الشيخ البدر ـ رحمه الله ـ وجاء فأنشدها في دار الحديث بنفسه على الملأ بحضُور الشيخ البدر كفَّارةً لما قدَّمتْ يداه ، وكان جمعاً عظيماً ، وحشداً كبيراً ، ومولداً جامعاً حضره أكابر دمشق وأعيانُها وعلماؤها ، مصداقاً لقول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

قال الراوي :

وانعقدتْ بين الشيخين بعد ذلك صداقة متينةٌ ، ومحبةٌ لم

يقطعها إلا الموتُ ، وعسى أن تتجدد إن شاء الله في الدار الآخرة .

* * *

ملاك الدِّين : الورع

حَدَّث بعضُ من أدركتُهم من المعَمَّرين بدمشق قال :

كان في دمشق رجلٌ من الحَارِفين ، ابتلاه الله بالفقر ، وقلّة ذاتِ اليد ، ورَزَقه الصبر والمصَابرة ، على همةٍ عَلِيَّةٍ في الدِّين والدنيا ، أعطى ربَّه حقه ، وأعطى نَفْسَه حقها في مرضاة الله ، وأعطى دنياه حقَّها من المشي في مَناكبها ، والسعي في طَلَب الرزق ، ولكنَّه إلى ذلك كلِّه لا يكاد يَصل إلى قوت يومه .

تَجَمَّل أمام الناس ، فهم لا يرون منه إلا ظاهرَ الغِنَى ، حتى لكَأَنَّه من الذين عَنَاهم القرآنُ الكريم :

﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾

[البقرة : ٢٧٣]

خَرَجَ الرجل لصلاة الفجر صباحَ جُمعةٍ في الجامع الأُمويِّ بِغَلَسٍ ، فصَلَّى المكتوبة ، ثم قرأ من كتاب الله ما شاء الله له ، وقام يمشي بين حلقات الشيوخ حتى استمع إلى

مجلس تَذْكيرٍ ، فجلس إلى شيخ وَقور من أهل العلم يُفسِّر قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

فكان مما قال الشيخ للمستمعين من الجمهرة التي تجلس إليه :

يا بُنَيَّ ! إنَّ العبد وحده ضعيف ، تتخطَّفُه شياطين الإنس والجن ، تَدْخُل إليه من مراكز ضعفه ، ثم تَسْتحوذ عليه فتَسُوقه إلى حتفه ، ولكنَّه إذا تَذَكَّر خِسَّة الأشياء الهابطة التي يَشْتَدُّ إليها ، ودناءتها وهوانها على الله في ميزان الحقائق الثابتة المجرَّدة ، وعِظَمَ ما أعدَّ اللهُ تعالى لمن تركها زُهداً بها ابتغاءَ ما عند الله سبحانه ، إذا تذكَّر هذه الحقائق ، وتَبَصَّرَ بها أضاءَ له بين يديه من سراج قلبه على عقله نور يمشي به بين الناس مُبْصِراً والناس عُميان من حوله ، أَعْمَتْهم الشهواتُ ، والرُّعوناتُ ، والجاهات ، وأَخْلَف الله عليه مكافآتٍ وجوائزَ ما كان يحلُم بها ، أو تدور في خلدِه ، مما لا قِبَل له به ، مصداقاً لقوله صلوات الله عليه : « إنك لن تدع شيئاً لله إلا

أبدلك الله به ما هو خيرٌ لك منه » .

فما مَثَلُ هذا الرجل في الدنيا من حيث مَوْقِفُه من هذه الشَّهوات إلا كَمَثَلِ إنسـانٍ مريضٍ أَشْفَى ، وقد نَصَحَه الأطباء بالحِمْيَةِ عن الطعام والشراب ، اللهم إلا نَطَراتٍ من المـاء ممزوجـةٍ بِدواءٍ ، فهذا الرَّجُلُ إذا استمع إلى نصيحـة الأطباء فَحَمَى نفسَه الحِمْيَةَ الواجبة طَوَالَ مرضِه ذاك حتى تَمـاثَل إلى شفـاء ، نَجَـا ، واستعـاض عمَّـا فاته من طعامٍ وشرابٍ ومَلَذاتٍ في أثناء مرضه أضعافَ أضعافِ ذلك مع الراحة والعافية ، وإنْ هو رَفَض ما قال الأطباء ، وغَرَّتْه لذة الطعام والشراب الوقتيةُ ، فَذَهَبَ يَرْتَع في تلك المآكلِ خَضْماً وقَضْماً ، قَتَل نَفْسَـه وأهلكها ، وذهب عليه أضعافُ تلك اللذة الذاهبة ، بَلْهُ ذَهَبَتْ عليه حياتُه ؛ التي هي أثمنُ مِنْ كل شيء ، فكان من الذَّاهبين .

* * *

خَرَجَ صاحبُنا من المسجد وقد امتلأتْ نفسُه بهذا الغِذاء الروحي العجيب ، واستَقَرَّ في عقله ذلك الحديث الشريف : « إنك لن تدع شيئاً لله إلا أبدلك الله به ما هو خيرٌ لك

منـه » ، وهكـذا يَفْعَـلُ الكـلامُ النُورانيُّ فِعْلَه في النفوس الطاهرة ، يزيدها طُهْراً وأَلَقاً ، ويَغْسِلُها من أَوْضـار الدنيا وعَفَنِها ، فتُصبحُ وِعاءً طَهُوراً للحكمة ، مِزَاجُه مِنْ تَسْنيم .

ومَشَـى الرَّجُـلُ على غير وَعْيٍ منه في سِكَكِ دِمشْقَ وحَاراتِهـا القديمة ، حتى سَـاقَتْه قَدَماهُ إلى حَارَةٍ مَسْدُودةٍ ، بـابُهـا الخارجيُّ مفتوحٌ ، فَوَلَج الدار فإذا هي دار قَوْراءُ ، وَسيعـةٌ ، فَسِيحـةٌ ، ذاتُ أَجنحةٍ وأَطْرَافٍ ، وكان جائعاً ، فســاقَتْـه قدماه إلى حُجْرةِ الطعـام ـ المطبخ ، بلغـة أهل الشـام ـ فَوَجَد طعاماً مطبوخاً ، شَهِيّاً ، سـاخناً ، مُعَرَّضاً للهواء ليبرد ، فأخذ قطعة منه دون تفكير ، فَأَكل منها لُقْمَةً شَدَّهُ إليها السَّغَبُ ، ـ وبِئْسَ الضجيع الجوعُ ـ لكنَّه تَذَكَّر فأَمْسَكَ ، لقد أَمْسَكَ قلبـه ، وعقله ، ويده ، ولكنَّ معدته ظَلَّتْ تُطَالِبُه بالازدياد ، فهرب من حيث جاء ...

تَذَكَّر الرجلُ قولَ الشيخ بعد صلاة الفجر في الجامع الأموي وهو يشرح معنى قوله ﷺ : « إنّك لن تدع شيئاً لله إلا أبدلك اللهُ به ما هو خيرٌ منه » .

إنَّ هذه اللقمةَ حرام لأنها سرقة ... اللهم غَفْراً . ولو أني

صَبَرْتُ رُبَّمـا نِلْتُها وأضعافَ أضعافِها حلالاً مباركاً ... فيا ويلتـا ! ماذا صَنَعتُ بنفسـي ؟ ! اللهم عَفْوَكَ ... ربِّ إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ... ثم أقْبَل على نفسه يُوبِّخها ...

وَيْحكِ يا نفسُ ... ما زدتِ على أن جَعَلْتيني بِنَهمكِ وجَشَعكِ الحَقـيرين ســارقاً ... وأنا الرجل الشريف الطاهر الذي لم تَمْتَدَّ يدي ولا عيني إلى حرام منذ وعيت الدنيا ... اللهم سَتْرَك وعفوك وغفرانكَ ...

وتَمْتَـم بأدعيـةٍ كان يحفظها لمثل هذه الزلّة ، والدموعُ تَنهمر من عينيْه ... ويحكَ يا فلان ... لقد صِرْتَ سارقاً .

* * *

مَشَى الرجل في سِكَكِ دمشق ، ودمشق لا تزال نائمةً في خَدَرٍ لذيذ لـمَّا تُفِقْ منه بَعْدُ .

مشى على غير هُدَى ، تَسُوقُه رِجْلاهُ ، متقارِبَ الخُطَا ، وقلبه يكاد يتفطَّر حُزناً على ما فَرَط منه ، فقد أَحسَّ بِفَدَاحَةِ الخَطْبِ ، وكِبَرِ الرَزِيَّةِ ، والرَّزيةُ الحَقُّ ليستْ هي التي تُصيب المرءَ في دنياه ، بل تلك التي تُصيبُه في أعزِّ شيء لديه : في

شَرَفِهِ ، ودينه ، واستقامته ، ومُروءته .

ولاذَ الرجلُ بالدّعاء والاستغفار ، وسكك دمشق وحاراتُها تَتَقاذَفُه على غيرِ هُدَى ، وطال بالرجل السَّيْر ، وارتفعت الشمسُ في كبد السماء ، وبدأ الناس يخرجون من دُورهم إلى رعاية شؤونهم وقضاء حَوَائجهم ، فكان ما لم يكن في الحِسَاب .

* * *

أَقْبَلَ على صاحبنا رجلٌ من الطريق فَحَدَّقَ فيه ... صَعَّد فيه النظر وصَوَّب ، ثم هجم عليه يعانقه ، ويُقبِّلُه من رأسه ، وذُهِل صاحبُنا من هذا الغريب وصنيعه ، ولكنَّ الغريب عرف الرجل ، وعَرَّفه بنفسه فقال له :

أنتَ واللهِ طِلْبَتي ... وأنا فلان صديقُكَ بالأمسِ البعيد ، أَنَسِيتني ؟ ! ولَشَدَّ ما تُنسي الأيامُ الأصحابَ ... وأنا أبحث عنك منذ الفجر في كل مكان أَظُنُّك فيه ، فلم أجِدكَ ولم أَرَ لك أَثَراً ... وها قد أكرمني اللهُ تعالى برؤياكَ ، فَتَعَالَ ولا تُطِل الكلامَ ، فأنا عليك على مثل جَمْر الغضَى ... ، ولكنْ هل أنت متزوج ؟ ثم إذا لم تكن متزوِّجاً فهل تحب أن تتزوج ؟ ! .

قال له صـاحبُنا : وما شـأنك بي ؟ وما هي القصةُ ؟ أَخْبِرْني حتى أذهب معك على بَصيرة ... وما هي قصة الزواج هذه ؟ ! وبعدُ فإني غير متزوج ، ولا مانع لديَّ من الزواج ولكنْ ...

فقـال له الرجل : إذاً لا وقتَ لَدَيْكَ ، وإنه محضُ خيرٍ لك ، فتعالَ معي ، وتَوَكَّلْ على الله ... .

*　　*　　*

مَشَيَا معاً في سِكَكِ دمشق وحاراتِها ، يذهبان فيها يَمْنَةً ويَسْرةً حتى وَصَلا إلى الحارة التي دخلها صاحبنا في الغَدَاةِ ، ثم دخلا الدار القَوْرَاءَ ذاتَها ، واستأذن الرجلُ فأذِنَ له أهلُها بالجلوس في قاعة الضِّيفانِ حتى يَتَهَيَّؤوا لاستقبالهم ، وجَلَسَ صـاحبُنـا لا يَدري شيئـاً مما يَحْدُث ، ولا يَكـاد لِفَرْط استيحاشه يَفْقَهُ شيئاً مما يُقَال ... ، ومضَى الرجلُ في حديثه كأنَّه يُكْمِلُ حديثاً سابقاً ... فقال :

هذا أيها السادةُ ! هو الرجل الذي كنتُ حَدَّثتكم عنه ، صـاحبي ، أتيتُ به إليكـم خاطباً بِنتكم فلانة ـ حَرَسَها اللهُ ـ على المهر الشرعي الذي تَرونه فإنه كفء ، والطيباتُ

للطَّيِّبين ، وأرى أن يكون المهر عشرة دراهم فضة أو ما يُعادِلُها ... وإنه فيما أعلم من عباد الله الصالحين ، وإنه كذلك ...

وزَمَّ صَاحِبُنا شفتيْه ، ورَفَع حَاجِبَيْه : أنْ لا صِحَّةَ لِمَا تقول ، فما أنا بِخَاطب ... ومن أين لي خِطْبَةُ النساء وما لديَّ مال ؟ ! ولا عندي دار ؟ ! .

وتجاهل الرجلُ تلك الإشارة ، ومضى في حديثه قائلاً :

أمَّا المهر فعليَّ ؛ وأمَّا الدار فهذه دار تَتَّسِعُ لِعِدَّةِ أُسَرٍ ، فإنْ شئتم سَكَناً لصهركم صالحاً ، فأفردوا له جناحاً من أجنحة الدار حتى يقيِّض اللهُ له داراً صالحةً ، وإنَّ مع العُسْر يُسْراً ، ولن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ ...

* * *

ذهب القومُ لصلاة الجمعة بعد شرب القهوة العربية ، ثم جاؤوا بعد أنْ قُضيتِ الصلاةُ ومعهم إمام الجامع والشهود من أهل الحي ، وغِبَّ رؤيَةِ صاحبنا وجهَ مخطوبته وموافقتهما معاً على الزواج ، عُقِدَ عَقْدُ النِّكاح ، وقام القوم مهنِّئين وعلى وُجوههم بَسَماتٌ وضِحْكات ، ومن طَرَف النساء زغاريد ،

حتى انقلب المجلسُ عيداً كلُّه غِبْطةً وحُبُور .

وقام أهلُ الدار إلى الطعام يَضَعُونه للضِّيفان على شَرَفِ صِهْرِهم الجديد ، فَوُضِع الخِوان ، فوقه الزَّاد مما حضر وتيسَّر ، فالأمرُ جاءهم بَغْتَةً لم يُهَيَّأْ له مِنْ قَبْلُ، واقترب صاحبُنا من الطعام ، فرأى القطعةَ التي بقيت من سؤره في الغَدَاة على حالها تنتظره ، فأخَذَها إليه ، والْتهمها وهو يبكي .

فقال له أهلُ الدار ورفيقُه يَعْلُوهم العَجَبُ :

ما الذي أبكاك ؟ يرحمك الله ، ونحن في محلّ فرح ومرح ... ؟ ! .

سَكَتَ الرجل ، فهو لا يستطيع أن يُفصح عما جَرَى معه الغداةَ كيلا يَعُدُّوه من السارقين ، ولكنَّه تَمْتَم بالحديث الشريف بينه وبين نفسه : « إنك لن تدع شيئاً لله إلا أبدلك الله به ما هو خيرٌ لك منه » .

صدق رسول الله ﷺ .

ودارت أمام عينيه أحداثُ القصة : تركَ طعاماً حراماً ، وزاداً مشبوهاً ، فرَزَقه الله الزاد كلَّه ، وزوجةً صالحةً ، وداراً

وسيعةً ، في أقلّ من نصف يوم ، بالحلال الطيِّب المبارَك مع التكريم والتقدير .

إنَّه الصَّبْرُ ... وصدق الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠] .

ولم يبت صاحبنا تلك الليلة إلا عَرُوساً لِبِكْر حسناء على فراش وثير ، وخير وفير ، ولسانه يتمتم بقول الله تعالى على لسان سيِّدنا موسى عليه السلام :

﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾

[القصص : ٢٤]

* * *

أإله مع الله ؟ !

قال الراوي :

كانَ في دمشق تاجرٌ معروفٌ ، حَسَنُ الحال ، تأثّل مالاً وتجارةً ، وله في ذلك أَسْفَارٌ ، فكان يَكْتري الدواب من المُكارين ؛ الذين كانوا يقومون مقام مكاتب الشَّحْن اليومَ ... وكانت الدوابُّ تقوم مقام سيارات الشَّحن كذلك .

وكانت له تجارةٌ إلى قريةِ الزَّبداني من قُرى دمشق ، فاكْتَرى مِن مُكَارٍ دمشقيٍّ دَوَابَّ لنقل تجارته تلك على شرط معلوم ، وتَجَهَّز للسَّفر ، وخرج مع المُكَاري بتجارته على الدواب بعد عصر يومٍ من أيام الصيف القائظة ، وكان الطريق إليها طويلاً يدور على سفوح الجبال ، ويمتد في سهوب وهضاب يحتاج المسافر الراكبُ فيها من الزمان أربعاً وعشرين ساعةً أو زُهاءَها .

أَسْدَلَ الليلُ سُتُورَه ، والتاجرُ يَسيرُ وَرَاءَ ثِقْلِهِ على دابةٍ ، والمُكاري أَمَامَها على الدَّرْب التُّرابيِّ الطويلِ في ليلة قَمْرَاء ، وقد اشتدَّ بهما النُّعاسُ حتى رَنَّقتْ عيونُهما أو كادت .

الْتفتَ التاجر إلى المُكاري ، الذي اسْتَوْلَى عليه النومُ ، فقال له ـ وقد تَرَجَّلَ ـ :

هل لكَ يا أخي ! في طريقٍ مختصَر أعرفه كلَّ المعرفة بين الجبال يُوصلنا إلى الزَّبداني في أقلّ من نصف المدة ، فنَكونُ عند الفجر إن شاء اللهُ هناك ؟ ! .

وأَجابه المكـاري بأنه لن يُمانع في ذلك ، فكلُّ الذي يَبْغيه هو اختصارُ الزمانِ ، وَطَيُّ المكان .

وسَارَ الرَّكْبُ في الطريق الجَبَلِيّ يَخُطُّ البَرِيَّةَ بِرَتْلِهِ ذاك ، حتى وصـل إلى سهـل مُنْبَسِطٍ بين جَبَلَيْن مُنيفَيْن ، فَنَادَى التـاجرُ المُكـاريَ وفي يده خِنْجر مَجْدَلانيٌّ ذو رَأْسَيْن ، لو وُضع فوق عُنُقِ ثَوْر لَذَبَحه :

هِيهْ ! انْزِلْ هنا على الفور ، ولا تَتَأَخَّرْ لحظةً فتَهْلِكَ .

والْتفتَ المُكـاري السَّـادرُ في نومه إلى التاجر وفي يده خِنْجَرهُ يَلْمع كأنَّه لِسانُ ثعبانٍ ظَهَرَ في حِنْدِس الظلام ، فما وَسِعَهُ إلا النُّزولُ ، فَنَزَل .

فقام إليه التاجر وقد شَمَّر عن ساعديه ، وأَخذ بِتَلَابيبِه وقال :

انظر أمامك .

فنظر المُكاري ، فرأى بين يديه وعن أيمانه وشمائله جماجمَ وعظاماً وجُثثاً لأموات قَضوْا هنا قتلاً وذبحاً ، واشتمَّ روائحَ الأموات المذبوحين حتى كأنه في مَسْلَخ ، وقال له المُكاري :

كلُّ هؤلاء قد ذبحتُهم بيدي وبخِنْجَري هذا ، فاخترْ لك الآن وعلى الفور كيفيةً أقتـلْك بها ، إن شئتَ ذبحاً ، وإن شئت نحراً ، وإنْ شئتَ بَقَرْتُ بطنكَ ، أو قطعتُ شرايين قلبك حتى الوتين ، فاخترْ وهاتِ ، واعجلْ ، فأنا من أمري على عَجَل .

قال له المُكاري ؛ مُتَذَلِّلاً :

ارفقْ بي ، وخذِ الدوابَّ واذهب ، ارحمني وأبقِ عليَّ أبقى الله عليك ، وارحمْ زوجةً لي وأولاداً هم بحاجةٍ لِكَاسِبِهِمْ ، فالراحمون يرحمهم الله ، خُذْ كلَّ شيء واذهبْ واتركني لعيالي ، فلا حاجة بك إلى قتلي .

قال التاجر بِكل كبرياءٍ :

هذا المال لي ، لا ريبَ في ذلك ، وحَاجتي إنما هي في رُوحكَ أَسْتلُّها مِنْ بين جَنْبيْكَ ، فاخترِ الذِّبحةَ التي تشاء .

قال المُكـاري ، وقد أَهْوَى على يديه يُقبِّلُهما بكلِّ ذُل وصَغارٍ :

أَرجو أن تُرْجِىءَ قتلي حتى أتيمَّـم وأُصلِّيَ ركعتين لله تعالى ، فهذا لا يَضُرك في شيء ، وسيكون لك ما تُريد .

أَذِنَ التـاجرُ للمُكـاري بذلك الذي طَلَبَ إليـه ، فقام الرجلُ فتَيَمَّم واستقبل القِبْلَة ، وكبَّر .

قال : فغَاب عن قلبه كلُّ كلمةٍ في القرآن الكريم ، فلم يَتَذكَّر فاتحةً ولا غيرها ، ووقف حائراً قد أُرْتج عليه ويَبِسَ لسانُه ، لا يَريم .

قال المُكاري : فلم أَذْكرْ إلَّا آيةً واحدةً من كتاب الله طَفِقْتُ أُردِّدُها ؛ أَلَا وهي قوله تعالى :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾
[النمل : ٦٢]

قال : فما زلتُ أُرَدِّدُها ، وأَصْرَخ بها مُسْتَجيراً أجأر إلى الله ، حيث بَطَل كلُّ ما سواهُ ، وضلَّ عني غيرُه .

قال الراوي : فوكزَه التـاجرُ الفاتك بِظُبَة الخِنْجَر قائلاً له :

هِيْه ! مَا لَكَ ؟ ! إلى متى هذه الصـلاة ؟ ! فأنا عليك على مثل جمر الغَضَى .

قال : فما مَضَت لَحَظاتٌ حتى هَبَطَ مِنَ الهضَبة المُجاورة فـارسٌ مُـلَثَّـم على فرس ، وبيمينـه حربة ، وهو غاطِسٌ في الحديد ، لا يبدو منه إلا عيناه ، وأَهْوَى على التاجر الفاتك بالحربة في ظهره فأَنْفَذَها من صدره ، ثُمَّ سَحَب الحَربة ووَلَّى لا يُـلْوي . أمـا التـاجر الفـاتك فتجندل على التراب يتعفَّر بدمه ، ويتخبط فيه ويتلَوَّى .

وصاح المكاري المظلوم وهو يشهد هذا المشهد العَجَب ، صاح يُنادِي بأعلى صوته ، وقد صار الفارس في قُنَّةِ الهضبة :

يا أيها الفارس ! مَن أنتَ يرحمك الله ؟ ! .

فلم يُجِبْه الفارس ولا الْتَفَتَ إليه .

وكرَّر الرجلُ نداءه ، وكاد الفارس أن يغيب .

ثم ناداه قائلاً :

سَأَلْتُكَ بوجهِ الله مَنْ أنتَ ؟ !

فالْتفتَ الفارسُ حينئذٍ وقال بصوتٍ عالٍ :

أنا رَسولُ الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء .

*　　*　　*

عالمٌ من دمشق

حَدَّثَ والدُنا ــ رحمه الله ، وطيَّب ثراه ــ فيما يَرويه عن الجَدّ السيد عبد الله الفرفور الحسَني ــ رحمه الله تعالى ــ قال :

كان في دمشق بمحلة زقاق النقيب ؛ التي كانت تُسمَّى أزهر دمشق لكثرة ما فيها من العلماء ، عالِمٌ جليل ، محبوب ، عُرف في محلته ومدينته آنذاك بِمَظِنة الولاية ؛ لِمَا يشهدون منه من تمام العمل بالسُنَّة ، والاستقامة على الشرع ، حتى كأنه رجل من السلف الصالح بُعِثَ من قبره لِيَحْيَا في زماننا ، بعد أن كان يعيش مع الفضيل بن عياض وأضرابه .

ذلكم هو الشيخ عبد المحسن المرادي ، وكان الجَدُّ ــ عليه رحمة الله ــ من خُلَّص أصحابه وجُلَسائه ، بل موضعَ سِرِّه .

كان الشيخ المرادي يُصلي أغلبَ أحيانه في جامع قريب من محلته تلك هو جامع البدرائية ، في محلة العمارة الجوانية ــ سبع طوالع ــ وكان قَبالة الجامع المذكور دارُ الجَدِّ المبرور التي وُلد فيها الوالد الماجِد ؛ وكانت آنئذٍ قصراً معروفاً له في التاريخ

سجل حافل من المكرمات ، وحَسْبُه أن ذَكَرَهُ المقَّريُّ في « نفح الطيب » حين أرَّخ لزيارته دمشق .

كان للشيخ المرادي ـ كما يعلم الناسُ كلُّهم ـ ولد واحد وحيد ، لم يُنجب غيرَه من الذكور ، وكان قلبه متعلِّقاً به كلَّ التَّعلُّقِ ، وسمَّاه لذلك وحيداً ، حتى إذا شبَّ عن الطَّوقِ وأضحى ملْءَ البصر ، وصار له من العُمُر زُهاء عشرين سنةً ، وامتلأ شباباً ونشاطاً وقوةً ، توفَّاه الله تعالى إليه على غِرَّة من الدهر ، وفوجىء الشيخُ بذلك الخبر الأليم ، فانقلب إلى داره ، ونظر في وحيده فإذا به قد ماتَ .

كان ذلك كلُّه في أقلّ من ساعةٍ من الليل ، وظلَّ الشيخ طَوال الليل فوق رأس ولده يقرأ القرآن الكريم ، حتى إذا ما انبلج الصَّباحُ ذهب الشيخُ إلى الجامع القريب ـ جامع البدرائية ـ للصلاة ، فلما قُضيتْ وقف الشيخُ إلى الجَدِّ يقول له :

كيف أنتَ يا سيِّد عبد الله؟ ! وكيف صحتُك وأولادك ؟ أطلب إليك ـ يرحمك الله ـ أن تصلي الظهر معنا بالجماعة الأولى لنصلّي بعد الظهر عليه ، ونُشيِّعه ، ثم ندفنه ، رحمه الله .

قال الجد ـ وهو ينظر إلى وجه الشيخ المرادي الضحوك المُتَبَسِّم الذي لا يُرى عليه أثر حزن ـ :

ومَن هو الذي توفي يا شيخنا حتى نشيِّعه اليوم ؟

قال له الشيخ وهو يضحك : وحيد ... وحيد ؛ ولدي ، أَمَا عرفتَـه ، لقد ماتَ ، واشهد أني راضٍ عنه ، فالحمدُ لله الذي مات وأنا راضٍ عنه ، فاذهبْ يا وحيد إلى جوار ربك وأنا من قلبي راضٍ عنك .

شَـرِقَ الجَدُّ بِبكائه ، وأَخْرَجَ مِنْديلَهُ يَمْسح به عينيه ، وصار الشيخ المرادي يُهَوِّن عليه الأمر ، فكأن وحيداً هو ولدُ الجدِّ ، فهو المصابُ به ، وكأنّ الشيخ المرادي ليس هو الوالد بل هو من الجيران ، فَطَفِقَ يُواسِيهِ كما يُواسَى ذو المصيبة الجَلَل في أول وقت نزولها .

قال الجدُّ : وجئنـا فصـلَّينا على الجنازة مؤتمِّين بالشيخ المـرادي والد المتـوفَّى ، ومَشَـى في جنـازة ولـده وهو فوق السَّبْعـين ، وولده المتوفَّى وحيد يُناهز العشرين ، وهو يَقول طَوال التشييع حتى واراه التراب :

الله يرضى عليك يا وحيد ، الحمد لله ، اشهدوا أيها الناس ! أني راضٍ عنه .

وعمل بعضُ جيران الشيخ طعاماً له ولأضيافه عملاً بالسُنَّة : « اصنعوا لآل جعفر طعاماً فإنه قد جاءهم ما يشغلهم عن الطعام » فقام الشيخ يُلْقِم أضيافه ، ولا سيما الجدّ بيده وهو يقول :

لِمَ أنتم حَزِينون ؟ لقد ذهب من عند عبدٍ لئيم إلى ربّ كريم ، مرضيّاً في حياة أبيه ، اشهدوا أني راضٍ عنك يا وحيد .

* * *

قال الجدُّ فيما يرويه الوالد ـ رحمهما الله تعالى ـ : وذكرت يومئذ ما سمعتُه من الأشياخ من شأن الفضيل بن عياض أنه لم يضحك قط منذ أربعين سنةً ، إلا لما مات ابنه عَلِيٌّ ، فضحك يومَه ذاك بما لم يكن معهوداً منه ، فسأله في ذلك تلميذه أبو علي الروذباري فقال الفضيل :

يا أبا علي أَحَبَّ اللهُ أمراً فأحببناه .

* * *

ورَوَى الوالد عن الجد ـ رحمهما الله تعالى ـ أنَّ الشيخ عبد المحسن المرادي رأى مع إنسان من العامة سيكارةً يُدَخِّنُها ، فجلس يَعِظُه ، وكان يرى في التدخين الكراهة التحريمية لضرره ، وفتكه في الأجسام ، فقال له الرجل :

إلامَ تَعِظُني ؟ أنا لا أستطيع أنْ أترك الدخان كما لا تستطيع أنت أن تترك شُرْبَ الماء فَدَعني وشأني .

فقال له الشيخ : إذا أنا تركتُ شرب الماء أتتركُ أنت شرب الدخان ؟ ! .

قال الرجل المُبْتَلى بالدخان يائساً :

نعم .

فقال الشيخ له وللحاضرين في المجلس بِصوتٍ عالٍ وبتَحَدٍّ مع استعلاء عن حاجات الجَسَد :

أُعاهدكم وأُعاهدك قبلهم ، ولله عليَّ عهد الله ورسوله قبل كل شيء ألّا أشرب الماء طَوَالَ حياتي حتى ألقى وجه ربي ، إذا كان ذلك سببَ توبتك من الدخان ، فعاهدني أنت ، فعاهده ، وتعاهدا وأَشْهَدَا الله وملائكته وصالحي المؤمنين .

قال الجَدُّ : فبقي الشيخ المدة الأخيرة من حياته بعد

ذلك العهد حتى توفاه الله لم يشرب الماء ، اللهم إلا فاكهةً يأكلها أكلاً كالبرتقال ، والليمون ، والبطيخ ، وما شابه ذلك ، ورُؤِيَ ذلك في وجهه اصْفراراً وشُحوباً ، وصدق الشيخُ فيما عاهد عليه الله ، كما صدق الرَّجُلُ في ترك الدخان حتى لَقِيَا وَجْهَ الله ـ عز وجل ـ وهو عنهما راضٍ .

فكانوا يَعُدُّونها له من الكرامات ، ويَفتخرون بها على أنَّها من الرُّجولةِ والفُتُوَّة ، وهل الكرامة الحقُّ إلا الاستقامة ؟ ! .

* * *

٢

السِّفْر الثاني

مِنْ ذَاكِرَةِ التَّارِيخِ

* قصة زواج
* شيخ يرد شهادة السلطان
* صهر ومهر
* هنالك الوَلايةُ لله الحقُّ

قصة زواج

حَدَّثتِ الرواية التاريخية الصَّدوقُ قالت :

كانَ في العصر العباسيّ الأول ببغداد شَابٌّ صالح ، نشأ في عبادة الله تعالى ورضوانه ... لم يكُ عالِماً ، بل كان يتردَّد على حلقات العلماء ومجالسهم يَغْشَاها ، يَلْتَقِطُ الحكمةَ ، ويَقْتَنص الفائدةَ ، وكان وَرِعاً ، زاهداً ، من الطِّراز الرفيع ، مَنْ رآه فكأنَّما رأى الحَوارِيِّينَ والربَّانيِّين الأوَّلين ... هذا هو « المُبارَكُ » ، عُرِف بذلك بين لِداتهِ وأصحابِه ، حتى صَارَ عَلَماً عليه يُنادَى به بين الناس .

عَمِلَ الشابُّ ناطوراً لبُستانِ رُمَّانٍ لأحدِ سُراة بغدادِ في ضواحيها ، وكان صاحبُ البستان تاجراً معروفاً من وجوه المدينة وأعيانها ، استأجر المبارك صاحبَنا لحراسة بستانِه لِمَا تَوَسَّم فيه مِن الخير ، وسِيماءِ الصلاح والورع ، وأَقام له في البستان سَكَناً خاصاً به مما يكون لأمثاله من النَّواطير في الحقول والبساتين .

ظَلَّ صاحبُنا المباركُ يَعمل « ناطوراً » للبستان رَدَحاً من الزَّمن ، حتى جاء يومٌ أَقْبَل فيه صاحبُ البستان مع أقرانه من التجار في نزهةٍ إلى البستان ، فَأُكلوا من أطايب الطعام ، وشربوا بارد الشراب مِمَّا أباحه الله لعباده المؤمنين في الدنيا ، وخصَّهم به يومَ القيامة ، ولَدَى الوداع أَحَبَّ صاحبُ البستان أن يكرم أضيافه بشيء من ثَمره ، فَصَفَّق بيديه داعياً إليه المباركَ فأَقْبَلَ ، فقال له :

يا مُبَارَكُ ! هاتِ لنا رُمَّاناً حامِضاً .

فجاء مباركٌ برمانٍ حُلْوٍ ، فردَّه التاجر مِنْ حيث جَاءَ ، ثم طَلَبَ إليه أن يُوَافِيَه ثانيةً بالرمان الحامض ، فجاءَه برمان مُزٍّ ، فَغَضِبَ التاجر وانتهره قائلاً :

كم سَنَةً لك في هذا البستان ؟ ! .

قال : ثلاثُ سنين ونَيِّفٌ .

قال : ثلاثُ سنين ونيف وأنت لا تَعرف الرمان الحلو من الحامض ؟ ! هَلَّا ذُقْتَه قبل أن تُوافيَني به ؟ !

قال : لا ؛ لم أذقه قط ، ولا ارتضيتُ لنفسي ذلك .

قال له مغضَباً : ولِمَ ؟ !

قال : لأنكَ لم تأذن لي يومَ استأجرتَني للنِّطارة بأكل شيء منه ، أَفَتُريدني أن أكون ناطوراً سارقاً ؟ !

سَكَتَ التاجر وقد جَمُدَ لِسَانُه في فمه ، فما يَنْبِسُ بكلمة ، وأطرقَ رَأْسَه ، ثم رَفَعَه وصَوَّبَ نظره في الشاب أمامه ذاك الذي لا يتجاوز العشرين ربيعاً من العُمُر قائلاً له :

هل أنتَ متزوِّج ؟

قال : لا ، وأنّى لي الزواج ؟ وأنا طالب علم نقير ؟ ! ومَن الذي يعطيني ابنتَه وليس لي مأوى إلا بستانك ، ولا عملَ إلا ما ترفدني به من نِطارة البستان ؟ ! .

قال صاحبُ البستان للمبارك :

إذا قَيض الله تعالى من غَيْبه لكَ من يزوجك ابنتَه ، وَيَمْهَرُها لكَ ، ويُخصِّصُ لك سَكَناً صالحاً ، أَفَتَزوَّج ؟ ! .

قال المبارك :

نعم ، وما الذي يَمنعني من ذلك إذا وَجَدْتُ الباءَةَ ؟ ! ولكنْ أين هذا الذي تقول يا سيِّدي ؟ ! ومن الذي يُجازِفُ بِبِنْته اليومَ هذه المجازفةَ ؟ ! هيهات ...

وقَفَ التاجرُ صاحبُ البستان أمام أصحابه الضُّيوف قائلاً بأعلى صوته :

أيُّها الأَضْياف ! اشْهَدُوا أَني زَوَّجتُ بنتي البكر البالغةَ فلانةَ بالوكالة منها والولايةِ عليها على صَداقٍ قَدْرُهُ أَلْفُ دينار مقبوضةٌ ، فقل : قَبِلْتُ .

قال المبارك ـ وقد دارت الدنيا برأسه من الهوْل فهو لا يكاد يَعي ـ : ... قَـ ... ـبِلْـ ... ـتُ ...

قام القوم يُهنِّئون صاحبَ البستان بِصِهْرِهِ الجديد ، ويُهَنِّئون المباركَ بزواجه ، وهو سَاهِمُ النَّظَرِ ، مُشَتَّتُ الفِكْرِ ، مُشَوَّشُ البال ، ليْس معهم في شيء مما قالوا ، بل هو لا يُصَدِّق نفسَه ، أَفي حُلُمٍ هو أم في يَقَظَة ؟ ! .

* * *

اصْطَحَبَ صاحبُ البستان أضيافه وصهره الجديد إلى داره ببغداد ، وأَوْلَمَ ، ودَعَا وجوهَ الناس ، وقصَّ قصةَ الزَّواج تلك في البستان ، وكان قد أُعطي سراً صهرَه المباركَ الدنانير الألْف ، واستكتَمَه ، وطَلَبها إليه أَمام الناس ، فَنَقَدهُ إيَّاها على المَلأ ، ثم انصرف القومُ مُهَنِّئين مُبَارِكين ، وبقي ربُّ الدار

وصهره المبارك وحدهما ، فَصَلَّيا العشاء الآخرة ، وأَوْترا في صحن الدار أمام البِرْكة ، ثم انفتل صاحبُ الدار فدَعَا لبنته وصهره بالبركة ، وأخذ بيد المبارك إلى جَناحٍ في داره أعدَّه لسكن بنته مع صهره الجديد ، فَبَرَّك عليهما ، ودعا لهما ، وأدخل صهره إلى مُخْدَعِ الزوجية بعد أنْ دَلَّه على المرافق .

قال الراوي : فدخل المبارك على زوجته فإذا هي بِكْرٌ ، حُسَّانة ، طُلَعَةٌ ، ذاتُ بهاءٍ ، ورُواءٍ ، كأنَّها فَلْقَةُ قمرٍ ، لم يَرَ الراؤُون أجملَ ، ولا أَحْسَنَ ، ولا أَطْيَب ، فَبَنَى بها ، فحملتْ منه في تلك الليلة حتى وضعتْ غلاماً وَضيئاً ذكياً أسمياه : عبد الله ، ولـمَّا شبَّ عن الطَّوقِ صحب عبد الله بن المبارك الإمام أبا حنيفة وأمثالَه من الأئمة الكبار ، ورَوَى الحديث ، وارتحل في طلب العلم ، حتى سُمِّي : عالِمَ الشرق والغرب وما بينهما ، وقيل : إذا لم تر الحديثَ في كتب ابن المبارك فلا تُحدِّث نفسكَ به .

إنه الإمام عبد الله بن المبارك .

لقد صدق الله تعالى إذْ يقول :

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف : ٥٨] .

وقال :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الطور : ٢١] .

صدق الله العظيم .

* * *

شيخ يرد شهادة السلطان

الْتفت الشيخُ من صلاة الضُّحَى في المسجد الجامع في قاعدة الخلافة إستانبول ، واحْتَبَى حيث أَسْنَد ظهره إلى أُسطوانة المسجد يستقبل جموعَ المتخاصمين ؛ الذين جاؤوه يَسْتَعْدُونه .

وجاءتْه قَضِيَّةٌ فيها بَيِّنةٌ تتكوَّن من شاهدين ؛ الأول منهما حَدَّاد ، والثاني السلطان بايزيد المُلَقَّب بـ (يِلْدِرِمْ) أيْ : الصاعقة ، الذي كان مفخرةَ آل عثمان وواسطةَ عِقْدهم ، ما جاء بعده فيهم مثلُه للإسلام ـ رحمه الله ـ .

والْتَفَتَ الشيخ يقول لصاحبِ الدَّعوى :

أَمَّا الحَدَّاد فَقَبِلتُ شهادتَه ، وأَمَّا السلطان فلا أَقْبَلُ شَهادتَه .

لم يكن الشيخُ القاضي الأكبر في قاعدة الخلافة ـ حَمْزَة الفَنَاري ـ خصماً للسلطان أو عَدُوّاً كاشحاً لَهُ ، لا بل كانَ مُوالياً لسلطان زمانه ، بدليل أنه ظلَّ موضعَ ثقة السلطان

طَوالَ هذه المدة الفائتة ، لم يُصِبْ هذه الثقة ما يُزعزعُها ، أو يُصَدِّعُ بُنيانَها ، ولكنْ دِينُ الشيخِ حمزةَ وورعُه شيءٌ آخرَ .

ذَهَبَ صاحبُ الدعوى المستشهِد بشهادة السلطان إلى الباب العالي على الفور ، واتَّصَلَ بأصدقائه مِن رجال القصر أن يذكروا موقف قاضي القضاة الأكبر لِلسلطان ، هذا الموقف الغريب العجيب ، إذْ كيف يرضَى به سلطاناً ، ولا يقبل شهادتَه في قضية من قضايا القضاء ؟ ! أليس في هذا تناقض ظاهر ؟ ! وشِبْهُ تَمَرُّد على السلطان ؟ ! .

وذُكِرَ للسلطان موقف الشيخ الفَناري من شهادته ، فقال السلطان :

أنا أثق بدين شيخنا الفَنَاري ، وأمانته ، وورعه ، فاسألوه : لِمَ رَفَضَ شهادتي ، وأنا سلطانُه وسلطان المسلمين ، وإمام الأُمَّة وخليفتها ؟ ! وَوَافُوني بالجواب ... على الفور ، فأنا أَقْبَلُ كلامَه إذا ظهر لي التعليلُ الفقهي المُقْنِعُ .

* * *

ذَهَبَ القومُ إلى الشيخ ، وبلَّغوه كلامَ السلطان ، فقال

لهم الشيخُ بِكل جُرأةٍ :

أنَا أُرتضي بايزيد سلطاناً لاستجماعه شروطَ الإمامةَ الكبرى شرعاً ، كما أرتضي دينَه ، وأمانتَه ، ولكني لا أُرتضي شهادتَه ، وقديماً قال الإمام مالك بن أنس ـ إمامُ دار الهجرة ـ : « إنَّه ليكون من شيوخي من أُستسقي به المطر ، ولكن لا أقبل شهادتَه » . وإذا سأل السلطان عن السبب الفقهي لردّ شهادته فأنا أقول : إني إمام المسجد الجامع ، وهو يبعد عن قصره عشرين ذراعاً ، ومَرَّ عليَّ دهرٌ لم أجده يصلّي خلفي بجماعة قَطُّ ، ولعله يصلّي منفرداً في قصره ، ولكنْ لماذا يترك صلاةَ الجماعة ؟ والفقهاءُ يُقرُّون أن تارك الجماعة دائماً بغير عذرٍ شرعيٍ تَسقط شهادتُه ! .

ذُكر ذلك للسلطان فقال :

صَدَقَ الشيخُ .

ثم أَمَر على الفور ببناءِ مسجدٍ جامعٍ في فِناءِ قَصره لا يَزال قائماً إلى يومنا هذا ، وأمر أن يُجعل له بابان ، بابٌ من قِبَلِ العامَّة ، وبابٌ من قِبَلِ القصر ، وجَعَلَ الشيخ حمزةَ الفَنَاريَّ القاضيَ ذاتَه إماماً راتباً لهذا المسجد ، وافتتحه

السـلطانُ بِنَفْسِـهِ في صـلاة جمعة جَمَعَ لها رجالَ الدَّولة ، والعلماء ، والقضـاة ، وخَطَبَ الشيخُ ، وصلَّى بالسلطان ، فلمَّا انتهى من الصلاة انْفَتلَ من صلاته قائلاً للسلطان على الملأ بصوتٍ عالٍ أجش سمعه كل من كان في المسجد :

الآن يا بايزيدُ ! أَقْبَلُ شَهَادَتك في مجلسِ القَضَاءِ .

ثم أَخذ السلطانَ بيده ، ووضَعَه في محلِّه ، وقال له :

السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فابتسم بايزيد من هذين الموقفين المُتَنَاقِضَيْن ، فقال الشيخ وقد فهم سرَّ ابتسامة السلطان :

ذاك يا أمير المؤمنين ! حقُّ الشرع ، وهذا حَقُّ المروءة .

* * *

صهر وصهر

دَخَل الفتى المسجدَ لِيصَلِّي صلاةَ المغرب بعد أن تَوَضَّأَ ، واسْتَعَدَّ للصلاة ، وانتظم في صفوف المصلِّين ، ولـمَّا انفتل من صـــلاته تمتم بِدَعواتٍ في نفســه يطلب إلى الله ــ عز وجل ــ أَنْ يجعلَه من طلّاب العلم النجباء ورثة الأنبياء ، فكم تاقت نفسه لذلك ولكنْ أَنَّى يكون ؟ ! .

ومرَّ الفتى علاءُ الدين بِحَلْقةٍ في المسجد الْتَفَّتْ حولَ شيخٍ وَقورٍ ، جَميلِ الطَّلْعةِ ، أسند ظهره إلى أُسطوانة من أســاطين المسجد ، ووقف على قدميه يُتْحف الطلبةَ بفرائد الفوائد من الفقه وأُصوله ، وأسرار الشريعة ومقاصدها ، بما يملأ العقولَ نُوراً وحكمةً ... ووقفَ الفتى ملياً ، ثم جلس وقد أَسَرَه الشيخ بذكائه ، وصفائه ، وروحانيته الأَخّاذة .

الْتزم الفتى علاء الدين بدرس شيخه فقيهِ العصر الشيخ علاء الدين السَّمرقندي الحنفي ؛ الذي انتهت إليه الفُتيا ، فكانت تَدْخل الفتيا لدار الشيخ كما قال مَن ترجَم له وتَخْرُج

وعليها خَطُّ الشيخ السمرقندي « أي : إمضاؤه » وخَطُّ ابنته فاطمـة التي قرأت على أبيهـا فأتقنت عليه المذهب أُصولاً ، وفروعاً ، وقواعدَ ، وتَفنَّنتْ في العلوم والفنون ، فكانت مرجعاً في الفتيا لا تقلّ عن أبيها علماً ، وفقهاً ، وأدباً .

لَزِم علاء الدين الكاسـاني شيخَه السمرقنديَّ ـ الذي كان يُلَقَّب بأبي حنيفة الصغير ـ رَدَحاً من الدَّهر ، قرأ عليه فيهـا مبـادىء العـلوم ، وأواسطَهـا ، ونِهـاياتِهـا ، وبرع في المذهب ، وكان من أَجَلِّ ما قَرَأَ عليه كتابه العظيم : (تحفَة الفُقَهاءِ) الذي كان يُعَدُّ بحق متنَ المذهـب .

أَحَبَّ الكاسانيُّ تحفة شيخه ، كما طمحتْ نفسُه إلى أن يصْهَرَ إلى شيخه فيتزوَّجَ بنته فاطمة سيِّدة الفقهاء ، كما أن أباها سيِّدُ العـلماء ، فذهبَ يكتب ويشرحُ التحفة ـ تحفة شيخـه السمرقندي ـ شرحاً ممزوجاً جمع فيه فروع المذهب وأدلتَه بأسلوب مُبَسَّط ، لم يُسْبقْ ولم يُلْحَقْ في ضِعْفِ حجمه أو يزيد ، وسمَّى كتـابه (بَدَائع الصَّنَائع في ترتيب الشَّرائع) فلمَّا أتمَّه قَدَّمَه إلى شيخه السَّمرقندي فَسُرَّ به وأعجبه ، ولَمَّا سأله الشيخ عن الصِّلة والمكافأة التي تَطْمَحُ نفسه إليها أجابه :

إذا رأى الشيخ ـ حفظه الله ـ أن يجعل هذا الكتاب الشَّرح مهراً لِبنتكم الجليلة فاطمة فَيُزَوِّجنيها .

رضيَ الشيخُ السمرقندي العظيم ، وزوَّجه في المجلس ذاتِه بنته فاطمة على مهر قَدْرُه كتاب (بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع) شرح كتاب (تحفة الفقهاء) للسَّمرقندي ، وأسكنه دَارَه مع بنته لا يبرح .

قالوا : فكانت الفتوى تخرج من دار الشيخ السمرقندي بعد ذلك وعليها خَطّ الشيخ وبنته فاطمة والكاساني ، وعاشا بأرغد عيش مُتَحابيْن .

ولـمَّا توفي السمرقندي أخذ الكاساني زوجته السيدة فاطمة ، فسكنا حَلَب ، ودرَّسا هناك ، وتُوفِّيا ، ودُفنا هناك في قبر بمكان معروف في حلب باسم قبر العاشقيْن ، فلذلك قالوا : (شَرَحَ تحفتَه فَزَوَّجه ابْنتَه) .

* * *

هنالك الولاية لله الحق

رَجَعَ الشيخُ إلى داره بعد عَنَاءِ العمل ، فاستقبلَتْه زوجتُه أُم البَنين بابتسامتها الحلوة المعهودة ، فهي وَفِيَّةٌ لزوجها : تُحبه وتُجِلُّه ، وتعتقد فيه مَظِنَّةَ الولاية لِمَا تَعرفه من صلاحه ، وتَقْواه ، وحُسْنِ تَوَكُّلِه على ربّه ، فبادَرَتْ إليه ، فَخَلعتْ عنه ثيابه ، وأعطتْه ثيابَ البِذْلة ، وقَدَّمتْ إليه الماء الباردَ ، ووسَادةً يَغفو عليها ريثما تُقَدِّم له لذيذَ الطعام .

كان الشيخُ في ضَحْوة النهار قدِ الْتقَى إخوانَه الرَّاحلين إلى مَهْبِط الوَحي ووَدَّعهم ، وعيناه تَذْرِفان سَواكِبَ الدموعِ أَسَفاً أَنْ لم يكن معهم ، فأَغفى على الوسادة ريثما يَبْلُغَ الطعامُ إناهُ ، فَرَأى فيما يَرى النائمُ نفسَه كأنَّه في المدينة المنوَّرة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ، وقد انتهى من مناسك حجّه ، يُسلِّم على النبي صلوات الله عليه وعلى صاحبيْه في الرَّوضة بين الحجرة والمنبر ، وانتبهَ من غَفْوَتِه تلك وهو يقول ، يُتمتم بلسانه : السلام عليك يا سيِّدي يا رسول الله ...

اشتدَّ الشَّوق بالشيخ المحبِّ المُوَلَّهِ فبكى حتى كاد يَختنق بعبراته ، فأقبلت عليه زوجتُه تَسأله عن سبب بكائه ذاك ، فلم يُكَلِّمْها بشيء ، وماذا يقول ؟

الْتفتَ الشيخُ إلى زوجته ، وأخرج من جيب صدره كيساً فيه قليلٌ من المال نَفَحَها به ، ووصَّاها بالأولاد خيراً وبنفسها ، وأمرها بتقوى الله ، والصلاة في وقتها ، واستودَعها الله ، وولَّى لا يُلْوي .

وصرخت الزوجة مُنَادِيةً زوجها بأعلى صوتها ـ وقد عُرِف باسم حاتِم الأصم ـ :

يا حاتِم ! تعالَ ... إلى أين ؟ ولمن تَتْرُكنا ـ يرحمك الله ـ ؟ !

رمَى الشيخ بِنَظرةٍ إلى أهله بالْتفاتةٍ قال لها فيها :

تَرَكْتُكمْ إلى الله ... إني أنا مُناوِل ، وقد ذَهبَ ، ولكنْ بقي الرزَّاق ، فما يَهمكم أمْرُ المُناوِل إذا بَقي لكم الرَّازِق ؟ !

وكانت له بنت صالحة مباركة فقالت لأمها : صَدق

والدنا والله إنما هو مُنَاوِل ، فإذا ذهب فقد بقي الرازق .

* * *

ارْتَحَلَ الشيخُ حاتَمٌ الأصمُّ في قافلةٍ صُحْبَةَ بِطَانةٍ لأميرٍ من أُمراء ذلك الزمانِ ، وكان ذلك الأميرُ على رأس تلك القافلة مصطحباً أُسْرَتَه ، وسار الركبُ إلى بيت الله الحرام على بركة الله .

وبَيْنَا القومُ في بعض المنازلِ سَرَى في الركب نَبَأٌ مُزعج مَفَادُه أن ابن الأمير الوحيدَ يُعاني من مرضٍ خطير أفْقَدَه الوعيَ ، فهو بين الحياة والموت ، وقد تَوَقَّفَتِ القافلةُ عن السَّيْرِ إلى أن يَقْضِيَ الله في الغُلام ما يشاء .

رَانَ الحُزْنُ على وجوه القوم ، وانشغل الناسُ بأمر ابن الأمير ، فلا حديثَ لهم غيرُه ، وخيَّم على القافلة وُجوم عامٌّ ، وَجَدَّ الأميرُ وصحبُه السَّيْر وَحْدَهُم إلى أقْرب مدينةٍ لِيَنْظُرَ أطباؤُها في الغلام فيعالجوه ، وَظَلُّوا على ذلك أياماً ، والقافلةُ واقفةٌ بالبيداءِ تَنتظر ما إليه سَتؤول الأمور .

سَمِعَ الشيخُ بالقصة ، فَلَزِمَ الدعاءَ يُصلِّي ، ويدعو الله

عز وجل أن يفرِّجَ سبحانه بالشفاء للغلام لتعود القافلة للسير نحو البيت الحرام .

وتَسَـامع الناس أنَّ الأمير بَذَلَ كُلَّ ما لديه من أموال للأطبـاء ، وكلَّما ازدادوا في علاج الغلام سعياً ازداد الغلامُ مَرَضــاً مُبَـرِّحـاً حتى أَشْفَى على الهلاك ، ونَزَل في منـازل الاحتضار ، بينما أبوه الأمير تكاد نفسه تهلك غماً على ولده ، وهو يراه يَذوي كما يَذْوِي السِّرَاجُ نَفِدَ منه الزيتُ .

وَدَلَف إلى الأمير رجلٌ استأذن عليه في شأن ولده ، فأذِن له لعل معه رأياً ، فقال الرجل الناصح :

أيُّهـا الأمير ! إنَّ رفيقيَ في القـافلة رجل مُبَـارَكٌ ، وقد جئتُك دون علمه ولا رأيه ؛ فإن رأيتَ أن تَستدعيه إليك ، فَيَدعوَ لولدك ، فلعل أن يُكتَب على يده الشفاء ، وما نَدري ، فـأنـا أَرى أنَّ له عند الله شـأناً ، وحَسْبُك استقـامتُـه على الشرع ، وإقامتُه للسُّنَّة ، ووقوفُه عند حدود الله لا يَتعدَّاها ، ومَنْ يَكُ هكذا فهو مَظِنَّةُ ولايةٍ ، ويَنبوع طُهْرٍ ، فإنْ رأيتَ يَرحمك اللهُ فَعَلْتَ .

انبثق في قلب الأمير نُور أَضاء له ما بين يديه ، فسأل

أهل بعلمانته عن الشيخ المدعوّ بحاتم الأصمّ ، فذهبوا يبحثون عنه حتى وجدوه فدعَوْه إلى الأمير ، وهو لا يدري شيئاً من أمر رفيقه وما دار بينه وبين الأمير ، وحين وقف بين يديْ الأمير سأله : أنت حاتمٌ الأصمُّ ؟ .

قال : نعم أيها الأمير ! فماذا تُريد ؟

قال الأمير مُتَلَهِّفاً :

أيها الشيخُ ! يَرْحَمُكَ الله ، هلَّا قرأتَ شيئاً من التنزيل أو أسماء الله الحسنى ، أو ما ورد في صحيح السُّنَّةِ بلسانك الطَّهور هذا على ولدي التَّالف ؛ لعل الله يجعل على يدك الشفاء ! .

فقال الشيخ : حبّاً وكرامةً ، أين هو ؟ ! .

قال : هو ذاكَ على فراش المرض يَئِنُّ ، فدونك فخذ في شأنك .

فَتَوضأَ الشيخ ، وصلَّى لله ركعتين ، ودعا بعدهما بانكسار ، ثم ذهب إلى الغلام يَقرأ عليه ، ويمسح على رأسه وصدره ، فقرأ ما شاء الله له من كتاب الله ـ عز وجل ـ ومن السُّنَّة النبوية الطاهرة ما صَحَّ منها ، ومن أسماء الله الحسنى

وصفـاته العُـلْيَا ، وهو في حالةٍ من الاتصـال بالملأ الأعلى ، يُغْبَط الشيخُ عليها .

قال الراوي :

وما عَتم أنْ انتفضَ الغلام انتفاضـةً تَعَرَّق بعدها تَعَرُّقاً شديداً ، ثم صَحَا ، ولا زال يتماثل نحو الشفاء شيئاً فشيئاً حتى قَامَ ومشَى ، وذَهَب عنه ما كان به .

قام الأمير إلى الشيخ يَشكر له صنيعه ، فاستعفاه الشيخ من ذلك ، واستـأذن ليذهب إلى شـأنه ، فاشـترط عليه أن يُعْلِمَه بمكانِ وجودِه في بلده على عنوانه ، وعن داره ومحلته ، فأعلمه بكل ذلك ، ثم استأذن وانصرف .

* * *

أَرْسَل الأمير رجاله بالأموال إلى بلد الشيخ حيث محلته وداره ، فاشتروا له داراً جديدةً وسيعةً في محلة أخرى أفضل وأكرم ، وفرشـوها بأثاث له ، ونقلوا أسْرَتَه إليها وجَعلوا فيها مؤنة سنـة ، وضم الأميرُ الشيخَ إليـه في سفره وهو لا يعلم بشيء مما فَعَل الأمير في بلده مع أسرته .

وحج مع الأمير وأولاده بالتكريم والحفاوة مع حُسْن الوفادة والرِّفادة ، ثم رجع إلى بلده بعد التشرّف بزيارة النبي صلوات الله عليه في الروضة المباركة ، حيث حَقَّقَ الله تعالى له رؤياه .

*　　*　　*

رجع حاتمٌ إلى داره فأخرج مفتاحه ليفتح فلم يفتح المفتاح ، فضرب البابَ فخرج له الجيرانُ فقالوا له :

الحمد لله على سلامتك ، وأما دارك فأصبحتْ في محلةٍ أُخرى وقد انتقلتْ أُسرتُك إليها ولله الحمد ، ألستَ أنتَ الذي أُمرتَ بذلك ؟ وبعثتَ من رجالك من حَقَّقَه على أرض الواقع ، فاحمد الله أيها الشيخ على الغنى بعد الفقر ، والرفعةِ بعد الضِّعة .

لـمَّا دله جيرانُه على داره الجديدة ودخل على أُسرته قالوا له :

يا ليتك لم تَرجع إلينا من سفرك هذا فوالله لقد رُزقنا بسفرك داراً وأثاثاً ومؤنة سنة ، بما لم نكن نحلمُ به وأنت بيننا هنا .

والْتفتتْ البُنَيَّةُ الصغيرة المباركة قائلةً لأمها وإخوتها :

أَلَم أقـلْ لكـم مـا قال الوالد : ذَهَبَ المُنـاولُ ، وبقي الرازقُ ؟ ! وصدق الله تعالى إذ يقول :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ﴾ [الطلاق : ٣] .

* * *

٣

السِّفْر الثالث

رجال ومواقف

* حامي البَرّ والشام
* زُهد الملوكِ وحَقيقةُ الزهدِ
* من عَظَماتِ العلماء
* أدبُ العِلْم في أهله
* حَمّالو بغداد

حامي البرّ والشام

انْفَتَل الفتى مِنْ صَلَاته في محلِّه بظاهر دمشق ؛ ذاك الذي أَعَدَّه لِصَنْعَةِ النِّجارة ، ودعا بكلماتٍ ، ثم قام إلى العمل ، فأمسك بالمنشار ليقطع به شَجَراتٍ كانت بباب محلّه ، وأهوى بكلِّ همةٍ ونشاط ، وآثار الوضوء لا زالتْ تخضلُّ بها لحيتُه الجميلة الشَّقراءُ ، وقد ناسَتْ عَذَبَةٌ لطيفةٌ من عمامته الخفيفة على عنقه ، أَكْسَبَتْه رونقاً وهيبةً ، وَمَرَّتْ في تلك اللحظة في ذهنه أعمالُ الصَّليبيِّين ببلاد الشام ، وما خَلَّفوه في أكثرها من قتل ودمار ، فأصابه دُوَارٌ في رأسه ، وآلامٌ في صدره ، ولكنَّه ظلَّ يَنْشُر الخشبَ بمنشاره ذاك قائماً على عمله ، يَوَدُّ أن يأكل من كَسْب يده ، ولكنه سمع هاتفاً من جانب المكان يقول له بصوت عالٍ ثلاث مرات : ما لِهذا خُلِقْتَ يا أَرِسْلَانُ !.

* * *

كانَ أَرسلانُ نَجَّاراً في النهار ، طَالبَ عِلْمٍ في الليل ،

استُهْتِرَ بذكر الله عز وجل ، وشَغَلَ وَقْتَه وفكره وعقله بالنافع من العلم والعمل الصالح ، وأَقْبَل على تطهير الباطن ، وشُغِفَ بصحبة الصالحين من الكُمَّل العارفين ، فكان يُكثر من تلاوة القرآن ؛ الذي حفظه في صدره وهو ابن عشر سنين ، يقرؤه آناءَ الليل وأطرافَ النهار ، فلما سمع ما سمع من الهاتف غيَّر مَجْرَى حياته كلَّه ، وأحسَّ بأن الله ـ عز وجل ـ خَبَأَ له ما هو خير ـ فتجرَّد للعبادة ، وتَفَرَّغ للعلم حتى أَتْقَن الفقه والحديث والأصولَيْن ، وشارك في العلوم والفنون ، ونَظَم الشِّعر الرفيعَ ، وكَتَب في التوحيد كُتُباً نفيسة منها رسالتُه الفريدة التي شَرَحَها كثيرون .

كان الشيخ أرسلان الدمشقيُّ مع أخيه أبي البيان تلميذين ومريديْن عند شيخهما أبي عامر المؤدِّب ، فلمَّا تُوفي شيخهما اسْتَقَلَّا برباط أبي البيان بظاهر دمشق ، الشيخ أرسلان في الجانب الشرقي من الرباط ، والشيخُ أبو البيان في الجانب الغربي منه ، ولـمَّا كثر مريدو الشيخ أرسلان استأذن أخاه أبا البيان ، وذهب إلى قريب من خيمة سيدنا خالد بن الوليد ، فبنى مسجداً بيده وأيدي تلاميذه ، وأقام رباطاً

ومدرسة ، وحَصَّنها كلَّها ، وأمرَّ النهر قريباً من ذلك كلِّه ، ودرَّب مريديه على الفتوة وركوب الخيل ، وأقام منهم كتيبةً إيمانيةً جهَّزها لِقتال الصَّليبيِّين ، حتى إذا حصل الصليبيّون هؤلاء بقرب دمشق ، أعْلَن عليهم الجهادَ ، وحمل مع مريديه السلاح ، وقاتلهم ، وأَبْلَى في قتالهم بلاءً حَسَناً ، فكان مُرَابطاً ، كما كان مريدوه كذلك مرابطين ، وظلَّ طَوَالَ حياته هو وتلاميذه مجاهدين في وجه الصليبيين من جهة والمغول من جهة أُخرى ، فأحيا بذلك سُنَّة الجهاد الحقّ لعلماء الدين بعامة والسالكين من الزُّهَّاد بخاصةٍ ، فسَمَّاه أهل دمشق من يومئذٍ (حامي البَرِّ والشام) أيَ : المجاهد المكلَّف بحِمَايَةِ البَرِّ والشام ، أي : « الريف والمدينة » ، وهو المُرَابِطُ .

* * *

أضحى رباط الشيخ أرسلان الدمشقي في أواخر أيامه ــ رحمه الله ــ مدرسةً حربيةً ، وكُلِّيةً ثقافيةً ، ومركزاً تربوياً لتنشئة الرجال الفتيان من السالكين المرابطين ، المجاهدين ، المتجردين عن الدنيا ، المقبلين على الآخرة وحماية الدين والوطن ، حتى أضحت ثُكْنةً عسكريةً لا رباطاً دينياً .

ولعلَّ هذه الروح العالية في رفض الاستكبار الصليبي والمُغولي ، وإعطاءِ السلوك الروحي إلى الله عز وجل صبغةَ الجهاد ، وهو ما دعا الناس بدمشق يربطون دائماً بين الشيخ أرسلان وبين الفتوة والجهاد ، فإذا أُطلق اسم الشيخ أرسلان لديهم فإنَّ هذا الاسم لا يعني أبداً شيخاً من شيوخ الطرق الصوفية ، كما يعني اسم عبد القادر الجيلاني ، أو أحمد الرفاعي ، أو الجُنَيْد ، بل يَعني ما تعنيه كلمة صلاح الدين الأيوبي ، والمظفَّر قُطُز ، والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، بالرغم من أن الشيخ أرسلان كان يعني المجاهد أوَّلاً ، والسالكَ المُسلِّك ثانياً ، فهو شخصيةٌ مزدوجةٌ اجتمعت فيه الوظيفتان كلتاهما ، كما كان الصحابة والتابعون من سَلَفِ هذه الأمة الخَيْرِ ـ رضوان الله عليهم ـ .

وهكذا جمع الله لأرسلان طيب الذِكْر في حياته وبعد مماته إلى يومنا هذا ، وجَمَع له في جواره قبور المجاهدين من السالكين الربانيين الشيخ أحمد الحارون الدمشقي ، ووالدي العلَّامة المجاهد الشيخ محمد صالح الفرفور الحسني ـ رحمهما الله تعالى ـ .

قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] .

صدق الله العظيم .

* * *

زهد الملوك ـ وحقيقة الزهد

وَقَفَ الناسِكُ في صلاة طويلةٍ يطلب إلى ربِّه أن يُعيدَ إليه حالَةً في قلبه من الحضور افتقدها ، وأُغْفَى إغفاءةً سمع فيها هاتفاً يقول له :

أيها الناسك ! إذا أَرَدْتَ أن ترجع لك حالتُك الحسنةُ تلك ، فما عليك إلا أن تَذهب إلى بلدة كذا فقل لِمَلِكِها فَلْيَدْعُ اللهَ لك ، فإنْ فَعَلَ استجاب ربُّك دعاءَه ، وردَّ عليك طِلْبَتَكَ .

قالوا : فسَار الرجل يقطع الأرض ، حتى وصل إلى تلك البلدة التي ذُكرت له في الرُّؤيا ، فَدَخَلَها ، وسأل مَن يُرشِدهُ إلى قصر الملك ، فجاء القصرَ ، وإذا عند بابه غلام جالس على عرش من الذهب مرصَّع بالدر والجوهر ، والناسُ بين يديه يسألونه حوائجهم ، وهو يصرف الناسَ .

فوقف الناسكُ بين يديه وسلَّم عليه ، فقال له الغلام :

مَن أين أنت ؟ وما حاجتك ؟ ! .

فقال : أنا من بلاد بعيدة ، وقصدي الاجتماع بالملك .

فقال له الغلام : إنَّ الملك ليس له إلا يوم واحد في الأُسبوع يجتمع إليه الناس فيه ، فاذهب حتى يأتي ذلك اليوم .

فانصرف النَّاسكُ إلى مسجد داثر وأقام يعبد الله فيه ، وأنكر في نفسه على الملك لاحتجابه عن الناس .

فلمَّا كان ذلك اليوم الذي يجلس فيه الملك جاء الناسكُ القصرَ ، فوجد خَلْقاً كثيراً عند الباب ينتظرون الإِذْن ، فوقف مع الناس ، فلمَّا خرج الوزير أَذِنَ للناس في الدخول ، فدخلَ أربابُ الحوائج ، ودخل الناسك معهم ، وإذا الملكُ جالسٌ وبين يديه رجال دولته على قَدْرِ مراتبهم ، فجعل رأسُ النَّوْبةِ يقدِّم الناس واحداً بعد واحد حتى وصلتِ النَّوْبةُ للناسك ، فلمَّا نظر إليه الملك قال :

مَرْحباً بفاقد قلبِه ... اجلس حتى أَفْرُغَ من حوائج الناس ، وأنظر في أمرك إنْ شاء الله .

قال : فتحيَّر الناسك في أمره ، فلمَّا فرغ الملكُ من حوائج الناس ، قام من مجلسه ، فأخذ بيد الناسكِ وأدخله

معه إلى قصره ، ثم مشى به في دِهليز القصر ، فلم يجدْ فيه إلا مملوكاً واحداً ، فسارَ حتى انتهى إلى بابٍ من جَريد ، وإذا به بناءٌ متهدِّمٌ وجدرانٌ مائلة ، وبيتٌ خَرِب فيه حصير قديم ، وجلد شـاة ، ورِكوة ... وليس هناك من متـاع الدنيا ما يُسـاوي عشرة دراهِم إلا سجادة صلاة ، وقدحاً للوضوء ، وشيئاً من الخُوص .

قال : فانخلع الملكُ من ثياب المُلْك ، ولَبِس مُرَقَّعةً من صـوف ، وجعـل على رأسـه قلنسوة ، ثم جلس ، وأجلس الناسكَ ، ونادَى : يا فلانة ! .

قالت : لبيك .

قال : أتدرين من هو الليلةَ ضيفنا ؟ .

قالت : نعم ، هو الناسك فاقد قلبه .

فدعا بها إلى حاجة ، فخرجت ، فإذا هي كالشَنّ البالي على جسدها مِسْحٌ من شعر خشن وهي شابة ، قال الرجل :

فالْتَفتَ إليَّ الملكُ وقال :

يـا أخي ! نُطـلعك على حـالنـا ؟ أو نقضي حاجتك وتنصرف ؟ .

فقلتُ : واللهِ لقد شَغَلني حالكُما عما جئتُ بسببه .

فقال الملك :

الله يعلم أنه كان لي في المُلْك آباء كرام صالحون ، يتوارثون المملكة كابراً عن كابر ، فلمّا تُوفُّوا إلى رحمة الله تعالى ، ووَصَلَ الأمرُ إليَّ بَغَّضَ اللهُ إليَّ الدنيا وأهلَها ، فأردتُ أن أتنسكَ ، وأعتزلَ الناس ، وأتركهم ينظرون لهم من يَسوس أمْرَهم ، فيملّكونه عليهم ، فخفتُ عليهم دخول الفتنة ، وتضييع الدين والشرائع ، وتبديل شمل الملّة ، فبايَعُوني وأنا واللهِ كارهٌ ، فتركتُ أمورهم على ما كانتْ عليه ، وجعلتُ السِّماط على عادته ، والحرس على حالهم والممالك على دأبهم ، ولم أُغيِّر شيئاً ، وأقعدتُ المماليك على الأبواب بالسلاح إرهاباً لأهل الشرور ورَدْعاً عن أهل الخيرات ، وتركتُ القصر مُزَيَّناً على حاله ، وفتحتُ له باباً هو الذي رأيتَه يُوصلني إلى هذه الخَرِبة فأدخل فيها ، وأنزِعُ ثيابَ المُلْكِ ، وألْبَس هذا ، وأضفر الخُوص ، وأبيعه ، فأتقوَّت من ثمنه أنا وزوجتي هذه التي رأيتَها ، وهي ابنةُ عمي . زَهدتْ في الدنيا زُهدي ، واجتهدتْ في العبادة والطاعة حتى صارت كما ترى كالشَنّ الخَلِق ، والناسُ لا يعلمون ما نحن فيه ، ثم إني

أقمتُ لي نـائبـاً ينـوب عني طَوَالَ الأُسبوع ، وعلمتُ أني مسؤول ، فجعـلتُ لي يوماً في الأسبوع أَبْرُزُ للنـاس فيه ، وأكشف عن مظالمهم كما رأيتَ ، وأنا على هذه الحالة مدةً ، فأقم عندنا ـ يرحمك الله ـ حتى نبيعَ خويصاتنا ، ونبتاعَ من ثمنها طعاماً ، وتفطر معنا ، وتبيت عندنا الليلة ، ثم تنصرف بحاجتك إن شاء الله تعالى .

قال : فلما كان آخر النهار دخل علينا غلام ، فأخذ ما عملاه من خُوص ، وسار به إلى السوق فباعه ، واشترى من ثمنه خبزاً وفولاً ، واشترى بباقي ثمنه خُوصاً ، فلمَّا كان عند الغروب أفطرا ، وأفطرتُ معهما ، وبتُّ عندهما .

قال : فقاما من الليل بعد هزيع منه يصلِّيان ، ويبكيان ، فلمَّا كان عند السَّحَر قال الملك في صلاته تلك :

اللهم إنَّ عبدك هذا يطلب إليكَ رَدَّ قلبه وحالته المرضيّة إليـه ، وإنك قد دللتَـه علينـا ، اللهـم ! فارددْ ذلك عليه ، وأجب دعاءه إنك على كل شيء قدير .

هذا ؛ والمرأة تُؤَمِّنُ على دعائه ذاك حتى فرغ .

قال : فرجَعَتْ إليَّ حالتي المرضيَّة ، وردَّ الله إليَّ قَلْبي ،

وجعل لي نوراً أَمْشي به ببركة دعاء الملك وزوجتِه ـ رحمهما الله تعالى ـ فودَّعتُهما وانصرفتُ ، فأنا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطانيه ... وهذه حقيقة الزُّهد .

* * *

من عظمات العلماء

عظمةُ العَالِم الحقّ تَكْمُنُ في انكبابِه على طلب العلم والاستزادةِ منه ، وكسبِه للوقت ، واهتبالِه الفُرَصَ ، فالوقتُ رأسُمالِه ، والليلُ سَميرُه ، والكتابُ أَنيسُه ، والأستاذُ نَديمُه ، والتَّوقيفُ حَليفُه ، والتَّوفيقُ رَفيقُه ، والصَّبْرُ صَديقُه ، والصِّدقُ شِعارُه ، والتقوى دِثارُه .

ولقد دَرَجَ على هذا النَّمطِ الأتَمِّ جُلُّ علماءِ السَّلَف الصالحِ والرعيلِ الأول من أعلام هذه الأُمَّةِ ، فَنَبَغُوا على صِغَر في أَسْنَانِهم . وقلّةٍ في أعمارهم ، شأن علماء الغَرْبِ اليوم حيث ينبَغ العالِمُ هناك وهو ابن أربعين سنة ، لا يُحَصِّله ابن ستين في شرقنا البائس في هذا العصر ؛ لنشاط الحركة العلمية ، وعلوّ الهِمَمِ ، وكثرة المشجِّعات والمنشِّطات على البحث العلمي .

وأضربُ لذلك أمثلةً من التاريخ الإسلامي العربي تُوَضِّح ما ذهبتُ إليه :

(١) النجم الغَزِّي العامري :

ورد في ترجمة الشيخ نجم الدين الغزي العامري صاحب « الكواكب السائرة في تراجم القرون العاشرة » أنه حفظ القرآن الكريم بالقراءات وهو ابن عشر سنين ، وحفظ الصحيحيْن ، وتفنَّنَ بالعلوم ، ودرَّس تحت قبة النَّسْر بجامع دمشق ـ وكان لا يدرِّس تحتها إلا أعلم علماء دمشق آنئذٍ ـ في رمضان ، ووضع كوزاً من الماء أمامه يشرب منه فقيل له في ذلك ، فقال :

إنه لم يجبْ عليَّ الصيام بعدُ ! (أي : لم يبلغ الحُلُم) .

(٢) ابن عابدين :

ومما ورد عن ابن عابدين الكبير صاحب الحاشية على الدر (السيد محمد أمين عابدين بن عمر) أنه ولد عام (١١٩٨ هـ) وتوفي عام (١٢٥٢ هـ) أي : أنه عاش أربعاً وخمسين سنة هجرية ، ترك فيها زُهاء اثنين وخمسين كتاباً من تصنيفه ، أعظمها « ردّ المحتار على الدر المختار » في خمس مجلَّدات كبار .

قالوا : وكان يدرِّس في النهار ويصنِّف في الليل ، وكثيراً

ما كان يصلّي الصبح بوضوء العشاء ، ومَن أراد التوسُّع فعليه بكتابي « ابن عابدين وأثره في الفقه » دراسة مقارنة بالقانون في ثلاث مجلَّدات كبار .

(٣) البدر الحسني :

ومن آخر هذا الرعيل شيخ شيوخنا العلَّامة المحدِّث الأكبر السيد الشريف الشيخ محمد بدر الدين الحسني المولود والمتوفَّى بدمشق (١٩٣٥ م) ، حيث قرأ على شيخه الشيخ عبد القادر الخطيب الحسني ، ثم لـمَّا توفي أتمَّ دروسه على ولده الشيخ أبي الخير الخطيب الحسني ، وكان بباب شيخه ملازِماً يحفظ المتون ، ويقرأ الشروح . ومما رُوي في الترجمة له ــ رحمه الله ــ أن أحد العلماء زار الشيخ أبا الخير الخطيب الحسني في داره ، وكان في أعتاب الشيخ أبي الخير تلميذه البدر ، فقال له الضيف :

من هذا الغلام ؟

قال : هذا ولدنا السيد بدر الدين السيد يوسف المغربي ، وهو الآن ابن خمس عشرة سنة قد حفظ زُهاء اثني عشر ألف

بيتٍ من المتون بعد القرآن الكريم والشاطبية ، وهو الآن مشمِّر ليقرأ شروحها وحواشيها .

قلتُ :

ومِن أعظم من رأيتُ على هذه الشَّاكلة أشياخي الثلاثة : والدي العلَّامة المبرور المجاهد الشيخ محمد صالح الفرفور الحسني ، والعلَّامة الطبيب الحكيم السيد الشريف الشيخ محمد أبا اليسر عابدين ، والسيد الشريف العلَّامة الشيخ محمداً المكي الكتَّاني ، وكانوا أقراناً ، وكنتُ وَلَداً لهم ، رأيتُ منهم العَجَبَ العُجَابَ في المحافظة على الوقت ، وعُلوِّ الهِمَّةِ في طلب العلم والتعليم ، والإفادة والاستفادة . — رحمهم الله تعالى — .

وممن يُذكَر في هذه العُجالة الإمام النَّووي — رحمه الله تعالى — حيث وُلد سنة (٦٣١ هـ) وتوفي بنَوى سنة (٦٧٦ هـ) أي : أنه عاش في هذه الدنيا قرابة خمسٍ وأربعين سنة هجرية . قالوا : صنَّفَ فيها من الكتب النفيسة ، والتعليقات الرائقة ، والشروح ، والحواشي ما لو فُرض أنه منذ وُلِدَ بدأ بالتصنيف وحتى تُوفي كان ينبغي أن يكتب في اليوم

(٨٠) ثمانين ورقة أي : (١٦٠) مئةً وستين صفحة ، فكيف وهو قد بدأ بالتصنيف وعمره قرابة تسع عشرة سنة !! .

هذه هي العظَمات لأولئك الأعلام ، وبهذه العظمات تُقاس الرجال .

* * *

أدب العلم في أهله

(١)

يُروَى أَنَّ الشيخ الحافظ زكي الدين عبد العظيم المُنْذِري كان في مصر يُفتي ، وهو متخصص في الحديث يرويه ، ويقرؤه على الناس روايةً ودرايةً ، وكان سلطانُ العلماء في الشام الفقيه المالكي العز بن عبد السلام ، وهو المتخصِّص في الفقه وأصولِه يَروي الحديث ، ويَقرؤه على الناس ، فلما دخل الشيخ العز بن عبد السلام مصرَ في رحلته من الشام امتنع الشيخ المنذري عن الفُتْيا ، وصار يقول لمن يَستفتيه :

لقد دخل العزُّ بن عبد السلام مصر ، وهل يُفتى ومالك في المدينة ؟ ! .

وامتنع العزُّ عن التحديث ، وصار يقول لمن يسأله التحديث :

هل يُروَى الحديث والشيخ المنذري في مصر ؟ .

فامتنع هذا عن الفتيا وهذا عن التحديث تأدُّباً من كلٍّ

منهما مع الآخر ، وصار كلٌّ يُحيل على أخيه في تخصصه ، فضربا بذلك المثل الأعلى للعلماء في تأدبهم ، وفي أدب العلم في أهله .

* * *

(٢)

ويُروَى أن الإمام أحمد زار الإمام الشافعيَّ يعوده من مرضه ، فقال الإمام الشافعي في ذلك :

قالوا يَزورك أحمد وتزوره
قلتُ المكارم لا تُفارق منزلَهْ
إنْ زارني فبِفضله أو زرتُه فلِفضـ
ـله ، فالفضل في الحالين لَهْ

وقال وقد عادَ هو الإمام أحمد من مرض :

مَرِضَ الحبيبُ فعُدته
فمرضتُ من حُزْني عليهْ
شُفي الحبيب فعادني
فشُفيتُ من نظري إليهْ

ويوم سُئل الإمام أحمد : ما تقول في الشافعي ؟ قال قولته المشهورة :

الشافعي كالشمس للدنيا ، وكالعافية للناس ، وهل يستغني الناس يوماً عن الشمس والعافية ؟ ! .

ورآه أحد العلماء المحدِّثين يأخذ بركاب الشافعي فقال له :

ومثلك يا أبا عبد الله ! يأخذ بركاب الشافعي ؟ ! مشيراً إلى صِغَر سنِّه .

فقال الإمام أحمد :

إذا شئتَ الشرفَ فخذ بالرِّكاب الأُخرى .. إنه الشافعي !! .

* * *

ويروي الربيع بن سليمان قال :

كَتَب الشافعيُّ إلى محمد بن الحسن ، وقد طلب منه كتباً فأخَّره ، فكتب إليه :

قل للذي لم تَرَ عَيْنُ
مَنْ رآه مثلَهُ

حتى كأنَّ من رآه
قد رأى مَنْ قَبْلَهُ
العِلْمُ يَنهى أهلَه
أن يمنعوه أهلَهُ
لعله يَبْذُلُه
لأهله ، لَعَلَّهُ

قال : فأنفذ إليه الكتب .

وقال إبراهيم الحربي :

قلت لأحمد بن حنبل : من أين لك هذه المسائل الدقيقة ؟ .

قال : من كتب محمد بن الحسن .

* * *

(٣)

ويوم دخل الإمام الشافعي بغداد صَلَّى في الأعظمية بجانب قبر الإمام أبي حنيفة في صلاة الفجر ، فلم يقنت في ثانية الفجر كما هو مذهبه ، فقيل له في ذلك فقال :

لقد استحييتُ مِن صاحب هذا القبر أن أُخالف عن مذهبه وأنا بجوار قبره .

رضي الله عن هذا الرعيل الأول ، وأرضاهم ، فلقد كانوا واللهِ هم الناسَ .

* * *

حمالو بغداد

حَصَل العالِم المغْرِبيُّ في بغداد عند الظَّهيرة ، والشمس تَشْوي الأرضَ بِسياطٍ من اللَّهبِ ، فلم يُعْطِ اهتماماً كبيراً لِحَمَارَّةِ القيظ ، ومَشَى في بعض سِكَكِ بغداد يَؤُمُّ مراكزَ العِلْمِ ، وَمَعاهدَه في عصر ازدهارِ الحضارة العربية الإسلامية ؛ ليجتمع بالعلماء فيأخذ عنهم ، ويأخذوا عنه ، فيَرى كلٌّ منهم نُظَراءَهُ .

وسارت به قدماه على غير هُدىً ، فهو لا يَعرف بغداد من قبلُ ، وهذه أَوَّلُ زيارة منه لها ، فهو يَسيرُ في طُرقها ، كما يَسيرُ العربيُّ اليومَ في شوارع واشنطن أو نيويورك لم تَطَأْهَا قَدَماهُ مِن قبلُ ... تَفتنُه مباهجُها ، وطرقاتُها ، ومبانيها قبل أن يَرى أهلها ويَرَوْهُ . والْتفتَ فرأى اثنين من الحمَّالين الذين يَمْتَهِنون حمل أمتعة الناس ، يأخذون على ذلك أجراً يَعيشون به ، ويرتزقون منه ، وقد حَمَل كلٌّ منهما على ظهره وكتفيه حِمْلاً ثقيلاً ، فهو يَنُوءُ به .

وأَتْبَعَ العالِمُ المغربيُّ بصَرَه هذين الحَمَّالَيْن وراح يَرْقُبهما عن كَثَب ، بحيث يراهما هو دون أن يَرَياه .

وَوَضَعَ الحمَّالان مَتَاعيْهما على الأرض في سِكَّةٍ من سِكَكِ بغداد حيث وَصَلا ، وجلس كلٌّ إلى صاحبه يتذاكران بما يتكلَّم به عادةً الحَمَّالون .

وأنصتَ الشيخ العَالِمُ المغْرِبيُّ لتلك المُذَاكَرَةِ ، فَسَمع أحدَ الحَمَّالَيْن يقول لصاحبه :

اسمعْ يا صاحبي ! إنَّ ابن عباس – رضي الله عنهما – جانبه الصواب في الاستثناء المنفصل ، فقد اعتدَّ به ، من حيث لم يعتدّ به الجمهور ، وإني أرى أن الحقَّ مع الجمهور في عدم الاعتداد بالاستثناء المنفصل .

فقال له الحَمَّالُ الآخر : ولِمَ يا صاحبي ؟ .

قال : إنَّ الله سبحانه قال في كتابه المجيد لِنبيِّه أيوب : يُفتيه تَحِلَّةَ يمينه :

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾

[ص : ٤٤]

فقد أمر الله أيوبَ ـ عليه السلام ـ ليتحلَّل من يمينه التي

عقدها على زوجته غير الوفية من تنكَّرت له في مرضه ، فلم تخدمه الخدمة الحقَّ ، فحلف عليها لئن عافاه الله ـ عز وجل ـ أن يضربها مئة عصا ، فلمَّا عافاه الله ـ تعالى ـ سأل ربَّه عن فُتْيا يمينه فأُوحى إليه ما مفاده : أن يأخذ بيده ضِغْثا ـ والضِغْث هو : الحزمة من القش اليابس ـ فيضرب به ضربةً واحدة ، فيكون قد بَرَّ بيمينه ، ولم يحْنَث .

فلو كان الاستثناء المنفصل صحيحاً معتدًّاً به لقال الله له : استثنِ فقل : (إن شاء الله) فإنه يقع استثناءً مُنْفَصلاً فَتَتَحلل به من يمينك ، ولكنه لم يُفته بذلك ، بل أفتاه بالضرب بحزمة القش مرة واحدةً تكون بِراً بيمينه الذي سبق منه .

قال الحمَّال الآخر :

هذا والله ! هو الحقُّ ، وما كنتُ أظنُّ أن هذا في كتاب الله ـ عز وجل ـ فلو تَدَبَّر ابنُ عباس هذا لما مَضَى في الاعتداد بالاستثناء المنفصل الذي ذهب إليه .

* * *

سَمِع عالِمُ المغرب ما قال الحمَّالانِ من قضية الاستثناء

المنفصل مما لا يعرفه كثير من العلماء ، وأضفى إلى ذلك الترجيح والاستدلال ، فقال في نفسه :

ويحك ما لك ولعلماء بغداد ؟ ! ارجعْ من حيث جئت فلا قِبَلَ لك بهم ، إذا كان حَمَّالو بغداد هكذا ، فكيف يكون علماؤها ؟ ! .

قالوا : ورَجَع من فوره ، ولم يدخل بغداد ، ولا وطئتْها قدماهُ بَعْدُ حتى توفاه الله إليه .

* * *

٤

السِّفْر الرابع
من جواهر الطُّرَف

* عمر صِهر لآل البيت
* أبو حنيفة في مواقفه
* قاضٍ في القفص الذهبي
* درس في الصبر
* عمر والفارك لزوجها
* من أدب أم المؤمنين

عمر صهر آل البيت

أَقبلَ عليٌّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ، وكرم وجهه ـ من عمله مَسَاءً كالاًّ من عَمَلِ يَدِهِ ، فَتَوضَّأَ ، وصلَّى الوِتْرَ ، ثم أكل تَمَراتٍ قَدَّمتْها إليه السيدةُ الزهراء فاطمة ـ رضي الله عنها ـ زوجته الطاهرة ، وشرب عليها جَرْعَةً من ماء ، ثم اضْطَجَع إلى جانب زوجته البِضْعَةِ النبوية الكريمة ؛ التي سُرعان ما أغفتْ من شدة تعبها في النهار ، وبقي أبو الحسن بين أوْلاده وزوجته مُتكئاً لا يَغْمَضُ له جفن ، ولا يَقِرُّ له قَرار .

وشدَّ ما شَغَل بال أبي الحسن ـ رضي الله عنه ـ أمر بنته السيدة أمِّ كلثوم ، فهي ـ رضي الله عنها ـ قد أصبحت امرأةً بكل ما في هذه الكلمة من معنًى ، والوالد لن يدومَ لبنته ، ولا يعلم ما خَبَأَ لها الغيب ، فلماذا لا يَسعى أبو الحسن في شأن بنته ، فيختارَ لها الكفء في حياته ، فيحصنَها عن الوقوع في براثن الضَّياع ؟ ! .

استخارَ الله ـ عز وجل ـ فانشرح صدره لما توجَّه إليه ، ومَنْ هو الكفء إن لم يكن أميرَ المؤمنين عمرَ بن الخطاب ؟ وهل هناك أكفأ منه لأم كلثوم ـ رضي الله عنهما وأرضاهما ـ فهو قد كان يُكِنُّ للشيخين كلَّ توقير وتقدير ، ولهما في حنايا صدره حُبٌّ أخويٌّ متين طالما سقاه الرسول الأعظم صلوات الله عليه ، فَلِمَ لا تكون أم كلثوم زوجاً لعمر ؟ وهَبْ أنه كان مُسِنًّا آنئذٍ فهل يمنع ذلك أو يقدح في كفاءته ؟ ألم يتزوجُ رسول الله من قبلُ عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهو ابن نيف وخمسين وهي بنت تسع ؟ ! .

وعَزَم ـ رضي الله عنه ـ على ما انشرح له صدره ، وأَسْلَم جفنيهِ لِكَرىً لذيذ ، وأحلامِ حُلْوَةٍ سعيدةٍ ، ظلَّت تُراوده طَوال ليلته المباركة تلك ؟ ! .

استيقظ أبو الحسن ـ رضي الله عنه ـ وأيقظ أسرته المباركةَ لصلاة الفجر ، وذهب هو إلى الحرم النبوي ليصليَ بالجماعة الراتبة وراء خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وكان بعد صلاة الفجر بين الصَّاحبَيْن الجليليْن استشارات في أمور المسلمين وما يهمهم ، فما كان

عمر بِغُنية أبداً عن مَشُورةِ عليٍّ ورأيه الحصيف - رضي الله عنهما - ... ومع ذلك لم يذكر أبو الحسن شيئاً مما دار في نفسه لصاحبه وإمامه أبي حفص ، بل أبقاه سراً مكتوماً في نفسه حتى يحين وقته ، ولكل أجلٍ كتاب .

كانت الشمسُ قد ارتفعت في كبد السماء ودخل عليٌّ داره ، فاستقبلته زوجته الطاهرة البتول بِبسمتها الحلوة ؛ التي عَوَّدتْه إياها ، والْتفتَ إلى أولاده يَسأل عن أم كلثوم الفتاة رائعة الجمال ، حتى لَتكاد تكون نسخةً عن أمِّها الزهراء ، فقالت له زوجته : إنها تَلعب في فِناء الدار مع إخوتها ، فأمر أن تحضر إليه فَحَضَرتْ ، وهي لا تَدري شيئاً مما عَزَم عليه أبو الحسن ، فَقَبَّلها أبوها من رأسها ، وأَعْطاها تَمراتٍ أَطْعَمَها منها ، وَوَضَع الباقيَ في حِجْرِها ، وقال لها :

هيه ، يا بُنَيَّة ! الْبَسي خمارك ، واذهبي إلى أمير المؤمنين فهو الآن في المسجد مع بعض أصحابه ، فقدِّمي إليه هذه التمرات وقولي له : يُسَلِّم عليك أبي أبو الحسن علي بن أبي طالب ، ويقول لكَ : أَنَضِجَ هذا التمر فَيُؤكَلُ ؟ ! ... ثم تَعَالَيْ فَقُصِّي عليَّ ما يقول لكِ .

لَبِسَت السيدةُ أم كلثوم ــ رضي الله عنها ــ خِمَارَها ، وذهب إلى الحرم النبوي ، فسألت عن أمير المؤمنين أين هو ؟ قالوا لها : هو في فِناء المسجد عند الحصوة ، يتذاكر مع بعض أصحابه في شؤون المسلمين .

فذهبتْ إليه ، فسَلَّمت عليه من بعيد ، وأَعطتْه التمرات ، وقالتْ ما أَمَرها به أبوها ، ثم وَقَفَتْ تَنْتَظر الجواب ، وكلُّ ما في ذهنها أنها رسولٌ لأبيها إلى الخليفة مِنْ أجل التمر ، فلعلّ الخليفة يريدُ شراءَ تمرٍ من أبي الحسن ... وهذا هو كلُّ شيء ...

أَحَبَّ الخليفة عمر أن يَرى نُضْجَها الأنثوي لِيَعْلم هل خرجت من طَوْر الطُّفولة عقلياً ونفسياً بعد بلوغها بدنياً ، فَشَدَّ طَرَف إزارَها بيده قليلاً ونَظَر إليها ، فإذا هي قد غضبتْ ، وتَنَمَّرت ، ثم هَجَمَتْ قليلاً ، ورَفَعَتْ يدها ، ولولا هَيْبَةُ عمر لَلَطمتْه على وجهه ، لكنَّها تَرَيَّثَتْ قليلاً ، وتذرَّعتْ بالصبْر ، وصرختْ في وجهه : أَتَشُدني من إزاري ؟ أَلَا تَستحيي ؟ ! واللهِ لولا أنك أمير المؤمنين لَصَفَعْتُ وجهَكَ ...

لكنَّ عمر بعد أن ذاق تمرةً من تلك التمرات قال لها : قولي لأبيك لقد نضج التمر فيُؤكَلُ ...

ورجعتْ غاضبةً إلى أبيها متنمِّرةً لا تكاد الدنيا تَسَعُها ...

أجل لقد فسد الزمان ... آه يا دنيا ! حتى أمير المؤمنين عمر الذي عُرف بين الصحابة بورعه وتقواه ، وهو أحد العشرة المُبَشَّرين بالجنة ... حتى هو يتحرَّش ببنت عليّ وبنت البتول بنت البضعة النبوية الطاهرة ؟ ! فاخسأ يا زمان ! .. فبطنُ الأرض خير بعد اليوم من ظهرها .

اسْوَدَّتْ الدنيا في وجهها ، وأظْلَمَتْ عيناها من الحُزْن ، فهي التي عاشتْ الدهر كلَّه عند أبويْها لا تعرف إلا الشَّرَف ، والطُهر ، والعفافَ ، ولا تتوقع من علْية الأصحاب الذين تشرَّفوا بصحبة النبي ـ صلوات الله عليه ـ وآزروه ، ونصروه إلا الكمال ... يصدر من أحد أكابرهم ، بل من الخليفة ذاته عمل مُشينٌ ؟ ! فلا حول ولا قوة إلا بالله ..

* * *

رجعتْ أُمُّ كلثوم إلى أبيها ساكتةً واجمةً . فلمّا سألها :

ماذا دار بينكِ وبين الخليفة عمر ؟ قالت وهي تَهْدِرُ كالفحل من الإبل :

أَرْسَلتني إلى الشيخ السُّوءِ .. ؟ ! والله لولا أنه أمير المؤمنين لَلَطمتُ وجهه ...

فقال لها أبو الحسن : ويحكِ ! وماذا صنع حتى يستحق منك كلَّ هذا ؟ ! .

قالت وقد تَفَجَّرت بالبكاء : أَمَا إنه شَدَّني من طرف إزاري ...

ففهم عليٌّ القصةَ فقال لها : وماذا قلتِ أنتِ له ؟

قلت له : ألا تَستحي ؟ تَشُدني من إزاري ، والله لولا أنك أمير المؤمنين لَصفعتُ وجهك ..

فضحكَ علي ، وقال لابنته السيدة أم كلثوم : وماذا قال لك عن التمر ؟ .

قالت : قال لي إنه نضجَ فيُؤكَلُ .

فضحك عليٌّ حتى بَدَتْ نواجذه ، ثم قال لابنته ــ رضي الله عنهما ــ : فإنَّه زَوْجُكِ في الدنيا والآخرة إن شاء الله .

* * *

أبو حنيفة في مواقفه

أبو حنيفة إمام الأئمة الفقهاء .

والحق أنه لم تكد الدنيا تعرف بعد الأنبياء والرسل والصحابة الكرام مثل هذا الرجل في عقليته الفَذَّة ، فهو قد أتقن علوم الدين وعلم الحياة .

كان في العلم بالذِّرْوةِ ، وفي الفقه في الغاية ، وفي الخُلُق الكريم في القمة ، وكان إلى هذا وذاك رجلَ العصر ، ورجلَ المجتمع ، ورجلَ الأُمَّة ، كان فَذّاً من الرجال . . .

ولعله ينتهي هذا الكوكب ، واسم أبي حنيفة يرِنُّ فيه عَلَماً من أعلام الشريعة المحمدية العُظْمَى ، وآيةً من آياتِ النبوة المحمدية الكبرى الخاتمة .

ولأبي حنيفة مواقف في حياته كانت مَعَالم على طريق الحق والهدى والنُّور ، سيكون لنا هنا شرف ذِكْر بعضها .

١ ــ أبو حنيفةَ في عُرْسٍ :

دُعي أبو حنيفة إلى عُرْس لأخوين على أُختين : زيد على

زينب ، وعمرو على علياء ، وكان ذلك بجمع عظيم من العلماء والوجهاء من عِلْية القوم ، وبينما هم كذلك يأكلون من وليمة العُرْس ، وقد أُدخل كلٌّ من الزوجين على زوجته ؛ دَبَّ الصوتُ بين الناس أنه قد حَدَثَ خطأ في الزِّفاف من النساء ، فَزُفَّ زيد على علياء ، وعمرو على زينب دون قصد إلى ذلك ، ولكنه السَّهو والخطأ والذُّهول ، فماذا يصنعون ، وقد حصل الدخول الحقيقي بالوطء بشُبْهَةٍ ؟ ! .

تكلم الفقهاء والعلماء الحاضرون كلٌّ بما فتح الله عليه ، وأبو حنيفة ساكتٌ ؛ لأنه كان أصْغَرَهُم سِنّاً ، فلمَّا وصل الحديث إليه قيل له : وأنتَ ما تَقول يا أبا حنيفة ؟ .

فرفع رأسه وقال : أَرَى ــ والله أعلم ــ أن يُطَلِّق كلٌّ من زيد لزوجته زينب ، وعمرو لعلياء ، وبما أنهما لم يدخلا على زوجتيهما المُطَلَّقتيْن فإنهما تطلقان بطلقة واحدة لا إلى عدة ، ولكل منهما نصف المهر ، ثم يُعقد بنصف المهر الثاني لكل من الزوجين على من وطئها بشبهة ، فتكون زينب لعمرو ، وعلياء لزيد على نصف المهر الآخر ، فتكون كلٌّ من المرأتين تزوَّجتْ من دَخَل عليها بشبهة بمهر قدره نصف مهر ضَرَّتها ، وأخذت نصف مهرها من زوجها الأول الذي طَلَّقها دون

دخول ولا خلوة شرعية .

قال : فأَقيموا عُرْساً جديداً ، وأَولموا وليمةً جديدةً . . .

قال : فقاموا إليه ، وقبلوه من رأسه ، وقَالوا : جزاك اللهُ خيراً يا إمام الفقهاء .

٢ ـ أبو حنيفة تاجراً :

كان أبو حنيفة شَريكاً مُضارِباً في تجارة البَزِّ ، منه المال ومن شريكه العمل ، وكان يُحاسب شريكه في كل أُسبوع ، وكل شهر ، وكل سنة ، ويأخذ ثُلُثَ الأرباح .

وفي يوم من أيام المحاسبة أَخبره شريكه بأن رجلاً من العامة اشترى ثوباً من قماش فيه عيب لم يفطن له البائع ، فاشتراه المشتري على أنه سليم من العيوب ، فلمَّا علم أبو حنيفة بذلك ، أخرج مُنادياً يُنادي على نفقته : بأن من اشترى من محل أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي من شريكه قماشاً معيباً فليُرجِعْه ، وله علينا أنْ يأخذ قماشاً صالحاً .

ولـمَّا يئس أبو حنيفة من رجوع الرجل إليه لإرجاع القماش المعيب ، أَمَر شريكه أن يتصدق برأس مال القماش

وربحهِ معاً ؛ لأنه مال سُحتٌ ، وكلُّ لحم نبت من سُحت فالنار أَوْلَى به ، وهكذا كان .

رضي الله عنك وأرضاك .. ما أعظم فقهك في دينك ! .. فالفقه الورع .

٣ ـ أبو حنيفة في مجلس الخليفة المنصور :

كان أبو حنيفة في مجلس الخليفة المنصور ، وكان له في المجلس أحد الحاسدين من أهل العلم ، فقال الحاسد للخليفة قاصداً الوقيعة بأبي حنيفة :

يا أمير المؤمنين ! إنَّ أبا حنيفة لا يقول بالاستثناء المنفصل فيُخالف جَدَّك عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ .

فاستشاط الخليفةُ غَضَباً وقال : أصحيح ما يقول فلان عنك يا أبا حنيفة ؟ !

قال أبو حنيفة : يا أمير المؤمنين ! إن هذا يُفتي الناس بمقالته تلك في الاستثناء المنفصل بجواز خلع بيعتك من أعناقهم ، فهو يقول لهم : إذا بايعتم الخليفة المنصورَ بيعةَ الخلافة وأنتم غير راضين فلكم أن تَستثنوا إذا خرجتم من عنده

فتقولوا : إنْ شاء الله ، فَتَبطُلَ البيعةُ ؛ لأنه وإن كان استثناءً مُنفصلاً فإنه معتدٌّ به عند ابن عباس - رضي الله عنهما - .

فلمَّا سمع المنصور ذلك ، صاح برجاله : اسحبوه .

فأخرجوه سحباً من رجليه إلى خارج مجلس الخلافة مودَّعاً بالخِزْي والصَّغار ، ورجع الخليفة المنصور إلى أبي حنيفة يعتذر إليه ويوقِّره ، فقال أبو حنيفة لمن حوله لـمَّا خرج : أراد أن يُلْجِمَنا فكَتَّفْنَاهُ .

* * *

قاض في القفص الذهبي

ارتفعت الشمس في كبد السماء ، وانتشر الضُّحاء في الأرض ، وقَرُبَ وقتُ الظَّهيرة ، وشدةُ الحَرِّ سياط تُلهب ظهرَ الأرض من حَمارَّة القيظ .

وأقْبَلَ الشيخ من جِنازة ، فَمَرَّ بِدُورٍ لنساءِ بني تميم ، فإذا هو بعجوزٍ على بابِ دار ، وإلى جانبها جارية كأحسن ما رأى الراؤون من الجواري ، فَعَدَلَ إليها ، واسْتَسْقَى وما به عطش ، فقالت له العجوز :

أيُّ الشَّرَابِ أَحَبُّ إليكَ ؟

قال : ما تَيَسَّر .

قالت : ويحكِ يا جاريةُ ! ائتيهِ بِلَبَنٍ ، فإنِّي أظنُّ الرجلَ غريباً .

فقال الشيخ للعجوز :

ومن تكون هذه الجارية منكِ ؟ .

قــالت : هي زينب بنت جرير ، إحدى نســـاء بني حنظلة .

قال : أهي فارغةٌ أم مشغولةٍ ؟ .

قالت : بل فارغة .

قال : أتُزَوِّجينيها ؟ .

قالت : إن كنتَ كفئاً (ولم تقل : كُفْواً) .

قال : فتركتُها ، ومضيتُ إلى منزلي لأَقيل فيه ، فامتنعتْ مني القائلة ، فلمَّا صليتُ الظهر أَخذْتُ بيد إخوتي من العرب الأشراف : علقمة ، والأسود ، والمسيِّب ، ومضيتُ أُريد عَمَّها ، فاستقبَلَنَا ؛ وقال ــ وقد عرف أُنني شُريح القاضي ــ :

ما شأنكَ ؟ أبا أُمية ؟ !

قلتُ : زينب ابنة أخيك .

قال : ما بها عنكَ رغبة .

قال ؛ فَزَوَّجَنيها ، فلمَّا صارت لديَّ نَدِمْتُ ، وقلت في نفسي : أيَّ شيء صنعتُ بنساء بني تميم ، وذَكرتُ غِلَظَ قلوبهنَّ ، فقلْت : أُطلِّقُها ، ثم قلت : لا ، ولكن أَدْخل بها ،

فإن رأيتُ ما أُحِبُّ ، وإلا كان ذلك .

*   *   *

كان شُريح يُحدِّث بهذه القصة الشَّعبي ، كما رَوَى الهيثم ابن عدي الطائي عن الشعبي قال :

لقيني شُريح فقال لي : يا شَعبي عليك بنساء بني تميم فإني رأيتُ لهن عقولاً .

فقلت : وما رأيتَ من عقولهن ؟ فذكر له القصة .

قال شُريح :

فلو شهدْتَني يا شَعبيُّ ؛ وقد أقبلتْ نساؤها يُهدينها حتى أُدخلتْ عليَّ ، فقلت : إنَّ من السُنَّة إذا أدخلت المرأة على زوجها أن يقوم ويُصَلِّي ركعتين ، ويسأل الله تعالى من خيرها ، ويتعوذ من شرها .

قال : فتوضَّأتْ ، فإذا هي تتوضأ بوضوئي ـ أي : مثلَه ـ وصَلَّيْتُ فإذا هي تُصلِّي بصلاتي ، فلما قَضيتُ أتتني جواريها ، فأخذنَ ثيابي ، وألْبَسْنَني مِلْحَفةً قد صُبِغتْ بالزعفران ، فلما خلا البيتُ دنوتُ منها فمددتُ يدي إلى ناصيتها ، فقالت : على رِسْلِكَ أبا أُمية .

ثم قالت : الحمد لله أحمده ، وأستعينه ، وأُصلي على محمد وآله ، أمَّا بعد ؛ فإني امرأة غريبة لا عِلْمَ لي بأخلاقكَ ، فبَيِّن لي ما تُحبُّ فآتيَه ، وما تكره فأَجْتنبَه ، فإنه قد كان لك مَنْكِحٌ في قومك ، ولي في قومي مثلُ ذلك ، ولكنّ إذا قضَى اللهُ أمراً كان مفعولاً ، وقد ملكتَ فاصنعْ ما أَمَرَكَ الله تعالى به ، إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، أقول قولي ، وأستغفر الله العظيم لي ولك ولجميع المسلمين .

قال : فأحوجَتْني واللهِ يا شعبيُّ إلى الخُطْبة في ذلك الموضع ، فقلت :

الحمد لله أحمده ، وأستعينه وأُصلي على محمد وآله ، أما بعد ؛ فإنكِ قلتِ كلاماً إنْ تَثْبُتِّ عليه يكن ذلك حظاً لي ، وإنْ تَدَعيه يكن حُجَّةً عليك ؛ أُحبُّ كذا وأَكْرَهُ كذا .. وما رأيتِ من حسنةٍ فابثثيها ، وما رأيتِ من سيئةٍ فاستريها .

فقالت : كيف محبتكَ لزيارة الأهل ؟؟ .

قلت : ما أُحب أن يملّني أصهاري .

قالت : فَمَن تُحب من جيرانكَ يدخلُ دارك آذنُ له ، ومن تكرهه أكرهُه .

قلتُ : بنو فلان قوم صالحون ، وبنو فلان قومُ سُوءٍ .

قال : فبتُّ معها يا شعبي ! بأنعم ليلةٍ ، ومكثت معها حولاً لا أَرَى منها إلا ما أُحِبُّ ، فلما كان رأسُ الحول جئتُ من مجلس القضاء ، وإذا أنا بعجوز في الدار تأمر وتنهى .

قلتُ : مَن هذه ؟

قالوا : فلانة أمُّ حليلتِك .

قلت : مرحباً وأهلاً وسهلاً .

فلما جَلَسْتُ أقبلتِ العجوز ، فقالت :

السلام عليك يا أبا أُمية !

فقلتُ : وعليكِ السلام ومرحباً بك وأهلاً .

قالت : كيف رأيتَ زوجتَك ؟ .

قلت : خيرَ زوجة ، وأوفقَ قرينةٍ ، لقد أدَّبتِ فأَحْسَنْتِ الأدبَ ، ورضت فأَحْسَنتِ الرياضةَ ، فجزاكِ الله خيراً .

فقالت : يا أبا أُمية ! إنَّ المرأة لا يُرى أسوأ حالاً منها في حالتين .

قلت : وما هما ؟ .

قالت : إذا ولدتْ غُلاماً ، أو حظيتْ عند زوجها ، فإنْ رابَكَ مُرِيبٌ فعليك بالسَّوط ، فوالله ما حاز الرجالُ في بيوتهم أشرَّ من الرَّوْعاءِ المُدَلَّلة .

فقلتُ : واللهِ لقد أَدَّبْتِ فأحسنتِ الأدبَ ، ورضْتِ فأحسنتِ الرياضة .

قالت : كيف تحبُّ أن يزورك أصهارُكَ ؟ .

قالت : ما شاؤوا .

فكانت تأتيني في رأس كل حَوْلٍ ، فتُوصيني بتلك الوصية ، فمكثتْ معي يا شعبي ! عشرين سنةً لم أعب عليها شيئاً ، وكان لي جار من كِنْدة يُفزع امرأته ويضربها ، فقلتُ في ذلك :

رأيتُ رِجالاً يضربون نساءَهُمْ
فَشُلَّتْ يميني يوم تُضْرَبُ زينبُ
أأضرِبها من غير ذنب أَتتْ به
فما العدلُ مني ضربُ من ليس يُذْنبُ
فزينبُ شمس والنساء كواكبٌ
إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهنَّ كوكبُ

درس في الصبر

أَقْبَلَ أبو طَلْحَةَ إلى داره وقتَ الظهيرة ، وقد أَعَدَّتْ له زَوجُه الطعامَ الهنيء ، والشرابَ البارد اللذيذ في ظِلٍّ ظليلٍ ، وفَرشتْ له الوسائدَ والزرابيَّ المبثوثةَ وغيرَ المبثوثةِ ، ثم قرَّبت له ولده وهو يَشتكي ، فقَبَّله من رأسِهِ ، وَدَعَا لَهُ بِدَعواتٍ مَسَحَ بها على موضع الشَّكاةِ ، ثم خرج ، وقد تركَ قلبه عند ولده العليل ، وسلَّمَ أمره إلى الله ـ عز وجل ـ .

قُبِضَ الصَبيُّ بُعيد خروج أبي طلحة من داره ، فقالت زوجُه أم سُـليم بنت مِلْحان ـ رضي الله عنها ـ أُمُّ الصبي لأهلها :

لا تُحدِّثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أُحدِّثه .

فلما رجع أبو طلحة : قال : ما فعل ابني ؟

قالت أم سُليم وهي أم الصبي : هو أسْكَنُ ما كانَ .

فقربت إليه عَشَاءً فاخراً كانت أعدَّتْه ، فأكل وشرب ، ثم تصنَّعتْ له بالحلي والزينة أَحْسَنَ ما تتصنَّع به المرأةُ الودود

الولود لبعلها ، بما لم تفعل من قبلُ ، فلمّا رأتْ أنه قد شبع ، وأصاب منها ، قالت :

يا أبا طلحة ! أرأيتَ لو أنَّ قوماً أعاروا عاريتَهم أهل بيتٍ فطلبوا عاريتَهم ، أَلهم أن يمنعوهم ؟ !

قال : لا .

فقالت : فاحتسبْ ابنَكَ ــ أي : اطلبْ ثواب مصيبتك في ابنك من الله تعالى ــ .

قال : فغضب ، ثم قال :

تركتِني حتى إذا تَلَطَّختُ ــ أي : جامعتُكِ ــ ثُمَّ أخبرتِني بابني ؟ ! .

قال راوي الحديث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ ابن أم سليم من غير أبي طلحة :

فانطلق أبو طلحة حتى أتى رسولَ الله ﷺ فأخبره بما كان ، فقال رسول الله ﷺ :

« أَعَرَّسْتُم الليلةَ ؟ ! » .

قال : نعم .

قال : « اللهم بارك لهما » وفي رواية : « بارك الله في ليلتكما » .

قال : فَحَملتْ ، قال : وكان رسول الله في سفر ، وهي معه ، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينةَ من سَفَرٍ لا يأتيها ليلاً لئلا يَرى ما قد يكره ، فَدَنوا من المدينة ، فضربها المخاضُ ، فاحتبسَ عليها أبو طلحة ، وانطلق رسول الله ﷺ . قال : يقول أبو طلحة :

إنك لَتَعلم يا ربٌّ أنه يعجبني أن أُخرج مع رسول الله ﷺ إذا خرج ، وأُدخلَ معه إذا دَخلَ ، وقد احْتَبَستُ بما تَرى .

تقول أم سُليم : يا أبا طلحة ما أجد الذي كنتُ أجِد ـ أي : من شدة الطّلْق والولادة ـ انْطَلِقْ . فانطلقنا ، وَضَرَبها المخاضُ حين قَدِما ، فولدتْ غلاماً .

فقالت لي أمي :

يا أنس ! لا يرضِعهُ أحدٌ حتى تَغدُوَ به على رسول الله ﷺ .

قال أنس : وقال لي أبو طلحة : احمله حتى تأتِيَ به النبيَّ

ﷺ ، وبَعَثَ معه بتمرات ... فلمَّا أصبح احتملْتُه فانطلقتُ به إلى رسول الله ﷺ ، فقال :

« أمعه شيء ؟ » .

قال : نعم ، تمراتٌ .

فأخذها النبيُّ ﷺ فمضَغَها ، ثم أخذها من فيه فجعلها في في الصبي ، ثم حَنَّكَه ، وسمّاه : « عبد الله » .

قال رجل من الأنصار : فلقد رأيتُ تسعةَ أولادٍ كلُّهم قد قرؤوا القرآن من أولاد عبد الله المولود .

* * *

عمر والفارك لزوجها

وَقَفَتِ المرأةُ ضَحْوةَ النهـارِ بباب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ زمن خلافته ، والناسُ حولَهُ في دارِ الإمارة المـلاصِقـة للمسجد ، تَرفع صـوتَهـا مستجـيرةً تَصْرُخ :

يا أمير المؤمـنين ! أنا مستجيرة بالله ثم بِكَ في كَشْفِ كُرْبتي ، وإغَـاثـةِ لَهْفتي ، وإنْصَـافي من ظُلامتي ، فقد بَلَغَ السيلُ الزُّبَى ، ولا قِبَل ليَ بما فوقَ ذلك ...

أَدْرَكَ الخليفـةُ الراشدُ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ هذه المرأةَ مظـلومـةٌ ، وأن وراء هذه المقـولة ظُـلامةً لم تصـلْ إليـه ، فاستدعاها إليه وقال لها :

ما شأنُكِ أيتُها المرأة ؟ وما ظُلامتُكِ ؟ ! .

قالت : يا أمير المؤمنين ! إنَّ زوجي إنسانٌ قبيح ، كريهُ المنظـر ، لا أُحِبُّـه ، وإني أَكْرَهُ الكُفْرَ(١) في الإيمان ... وهو

(١) أي الزِّنى .

حَابِسُني عنده ، فَطَلِّقني منه ... وارحمني بذلك يرحَمكَ الله ...

أَطرق الخليفةُ إلى الأرض هنيهةً ثم رفع رأسه وقال لها : مَن زوجك ؟ .

قالت : فلان بن فلان .

قال لها : اذهبي إلى زوجكِ الآن ، وقولي له : أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بَعَثَ إليكَ معي لتَسْعَى إليه في دار الإمارة الملاصقةِ للمسجد فلا تتأخَّر ...

قال الراوي : فما عَتم أن جاء الزوجُ ... مُهرولاً .

وأقبلَ الرجلُ على الخليفة يَسأله عن جَريرته حتى استدعاه إليه ...

نظر إليه الخليفة فصوَّب فيه نظره وصَعَّد ، فإذا به كالغول ... ثائر الرأس واللحية ، كأنَّه وحش مُفْتَرِسٌ خَرَجَ من أَجَمَة ، أمَّا رَائحتُه فَحَدِّث ولا حَرَجَ ، فما بَلَغَتْ رائحة التُّيوسِ في زُرُبِها ما بَلَغتْه رائحةُ جِسْمِه .

نَظَرتِ الزوجةُ إلى الخليفة كأنها تقول له : أَلَسْتُ على

حق في كراهتي لزوجي هذا ؟ .

وأَمَرَ الخليفةُ المرأةَ أن تُوافيَه غداً في ضَحْوة النهار ، فَذَهَبَتْ .

وأمر بالرجل فأُخذ إلى الحمَّام ، فَقُلِّمتْ أظفارُه ، وقُصَّ شَعْرُه ، وهُذِّبتْ لحيتُه ، وغُسِّلَ بَدَنُه بالماءِ والأشنان ، وأُلبِسَ ثياباً جُدُداً ، وعمامةً زاهيةً ، وجيء به إلى مجلس الخليفة في ضَحْوَةِ اليوم الثاني كأنه عروسٌ يُزَفُّ إلى عروسه في ليلةَ عُرْسٍ راقصةٍ .

* * *

أَقْبَلَتِ المرأةُ تَسْعَى إلى مجلس الخليفة ، وقد زَوَّرَتْ في نَفْسِها كَلاماً تطلب فيه إلى الخليفة الطَّلاقَ من زوجها المتوحِّشِ ذاكَ ... فلمَّا وَصَلتْ إليه قالت :

هلَّا طلَّقتَني منه يا أمير المؤمنين ! فإني له كارهة .

فقال الخليفة : ومَن تقصدين أيتها المرأة ؟ .

قالت : زوجي الذي رأيتَه بالأمس .

فقال لها عمر ـ رضي الله عنه ـ :

هذا زوجكِ ، خُذيه بارك الله لكِ به ، وبارك له بكِ .

استعاذتِ المرأةُ بالله ، وسترت وجهها بخمارها لـمَّا نَظَرَتْ إلى ذلك الرجل الغريبِ الأجنبيِّ الذي لا تَعْرِفه ، وأدارت وجهَها عنه ، وقالت :

أُعوذ بالله يا أمير المؤمنين ! أن يكون هذا زوجاً لي ، إنه ليس بعلي ، أنا لا أعرفه ، ولكنَّ بعلي ذلك الرجل المتوحِّشُ .

قال عمر للرجل : فأَرِها علامةً تَعْرِفُكَ بها .

فأراها الرجل علامةً في كفِّه عرفته بها ، فنظرتْ إليه مُستغربةً ، كيف انقلب ذلك الوحشُ إنساناً لطيفاً جميلاً ، فقالت للخليفة الذي ضحك حتى بَدَتْ نُواجذه :

جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين ؛ فلقد رددته إليَّ زوجي بعد أن جعلتَه إنساناً ، وإني لا أبغي به بَدَلاً .

وولَّى الزوجانِ ضاحكين .

* * *

مِن أدب أم المؤمنين

مِنْ أجمل ما قيل في ترجمة أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوج نبينا في الدنيا والآخرة بعد تَعْدادِ فضائلها ومزاياها التي عُرِفت بها : أنها كانت بَليغةً ذاتَ أدبٍ ، ومعرفةٍ بلغة العرب وأيامهم وأنسابهم . رُزِقَتْ بياناً أخّاذاً ، وأَدَباً جَمّاً ، وحُسْن تَوَصُّلٍ وَتَوَسُّلٍ ، إلى حَلاوةٍ في الحديث كأنه اللؤلؤ الرَّطْبُ .

ومن جَميل ما يُروَى في ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ كان يوماً معها في لحافها ، فأَحبتْ أن تُداعبه ، لِتُظْهِرَ فضلها على ضَرَّاتها من أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ بالبكارة ، فقالت :

يا رسولَ الله ! أرأيتَ إلى الشجرة التي أُرتع تحتها ، وإلى الشجرة التي لم يُرتعْ تحتها ، فبأيّهما كنتَ تُرْتِع بعيرَك ؟ .

فقال النبي ﷺ وهو يضحك :

« في الشجرة التي لم يُرْتَعْ تحتها » ـ وقَصَد بذلك ما

قصدتْه رضي الله عنها من الزوجة البِكر .

* * *

وقال لها النبيُّ ﷺ ليلةً وكان معها في فراشِها يُداعبها ما يُداعِبُ الرجلُ أهلَه ... : « أتأذَنينَ لي أنْ أقومَ إلى ربي ؟ ! » .

قالت له السيِّدةُ المُبَرَّأة المُطَهَّرة – رضي الله عنها – :

والله يا رسولَ الله ! إني لأُحِبُّ قُرْبَكَ ، ولكني أُؤثِر هَوَاكَ .

* * *

واختلفَا يوماً فيما يكون بين الرجل وأهله فقال لها ﷺ :

« واللهِ إني لأَعْلَمُ إنْ كنتِ راضية عني أمْ غَضْبَى » .

قالت : وكيف ذلك ؟ .

قال :

« إنْ كنتِ راضيةً قلتِ : ورَبِّ محمدٍ ، وإنْ كنتِ غَضْبَى قلتِ : وربِّ إبراهيم » .

فضحكتْ وقالت :

والله لا أهجر إلا اسمك .

أي : أنتَ في قلبي مكين ، لكنْ أترك ذكر اسمك إظهاراً لعدم رضائي في حياتي الزوجية عن مسألة من مسائلها ، أو قضية من قضاياها .

*　　*　　*

فهرس الموضوعات